رسائل إلى ساندريللو
(ضمير لا يغيب)

نضال سواس

رسائل إلى ساندريللو

المؤلفة : نضال سواس

تصميم الغلاف : خليل إبراهيم

لوحة الغلاف : الفنانة التشكيلية السورية نضال السواس

ISBN : 978-9933-674-48-9

الطبعة الأولى /2023/

جميع الحقوق محفوظة

دار كيوان للطباعة والنشر والتوزيع

سورية-دمشق-الحلبوني-بناء اتحاد الناشرين

سورية -السويداء -مقابل المشفى الوطني

الإمارات العربية المتحدة: 00971526917359

تلفاكس: 0096316211260

kiwan.publishing@gmail.com

kiwan_house@yahoo.com

www.facebook.com/kiwanhouse

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أو الالكترونية أو الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من المؤلف.

All rights reseved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted by any means : electronic, mechanical photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the Translator.

رسائل إلى ساندريللو
(ضمير لا يغيب)

نضال سواس

المقدمة

نضال سواس الضمير الذي لايغيب في رسائل إلى ساندريللو...

(رسائل لم يحملها ساعي البريد)

عـبـدالـوهـاب بـيـرانـي

(ساندريللو... حتى لاسمك معنى الاحتراق فيمَ كان احتراقك حتى أمسيت رماداً متحركاً بعصف الحقيقة؟..).

فمن هو ساندريللو هذا، وأين يعيش وفي أي زمن، وماأسباب اعتقاله وزجه في تلك الزنزانة، وماهو العمل الذي سيقدم عليه؟.

«رسائل إلى ساندريللو» هي سلسلة رسائل مفتوحة ترسلها امرأة تقيم في مكان مفتوح، بهي ودافيء إلى إنسان قابع في عتمة زنزانة رطبة تفوح منها رائحة العفن والبول عبر عنوان يحمل مدلول نافذة لم يوضح ساندريللو حقيقتها وشكلها ومساحتها، وهل كانت ذات قضبان وأسلاك جديدة أم لا.. «رسائل إلى ساندريللو» عتبة مثيرة، جذابة، وبإمكانها أن تحرك فضول المتلقي دون مقدمات لاكتشاف مضامين الرسائل وماتحملها من أسرار وصولاً لمعرفة النهاية.

الكاتبة نضال سواس تمنحنا عدة تيمات وتتوغل في مكاشفات مفاهيم قديمة متجددة في متن صفحات رسائلها مثل: الحياة والموت وصراع الذات مع الموضوع والوطن والمكان والتاريخ والحرية...

تدور في نمطية سردية تراسلية أفقية موجهة في الفلسفة السياسية وكيمياء الواقع من جهة واحدة، فلا نعثر على أجوبة لرسائلها إلا من خلال مونولوجات تناصية ضمن الرسائل المرسلة، فنكاد نسمع بعض آراءه وذكرياته، ومقولاته، وأيضاً بعض الحوارات التي تنقلها الروائية إلى رسائلها في حالة توظيف رسم المعالم العائلية التي يفتقدها ساندريللو في عزلته الإجبارية؛ ولذلك فمن البديهي إلا تكون كتلك الرسائل التي يحملها سعاة البريد إلى الناس، وانما هناك جمالية أدبية ومهارة لغوية وفكر واقتباسات وتناصات عديدة، بالإضافة إلى سحر السرد المترع بالغموض والخيال وتفاصيل عن حياة سياسية وحزبية مرت بها البلاد في فترات من تاريخ مثقل بالخيبات والهزائم، وصولاً لحالة السوري الخائف من قذيفة هاون أو رشقة رصاص، في ظل حالة حصار وجوع وتهديد، وتأخذنا الرسائل إلى الحدود الدولية لعدة دول وأقاليم ونستشعر رحلة النزوح من مدينة إلى مدينة والعبور لبلدان مجاورة (تركيا _لبنان_الأردن) ولاحقاً إلى أوروبا..

تتناول الرواية ليس تفكيك الحالة السورية، ومحاولة تشخيص الشرخ والتعبير عن حجم الوجع وإنما تسعى إلى تلمس الجرح وتشير إلى الأخطاء الفكرية، وتشخص الذات والموضوع، حيث تتشابك في نصوص الرسائل أحداث واقعية، وتخيلية متنوعة، وتتناغم تيمات عديدة على إيقاعات درامية أفقية التركيب إلى جانب ذكر شخصيات عدة إلى جانب شخصية المرسلة وشخصية المرسل إليه، نستشعر وجود شخوص رئيسية وثانوية عبر حركية التاريخ العالمي والسوري والإقليمي ذات الصلة وصيرورة الزمن وتناوب الأجيال مابين فترة الستينيات إلى فترة الصراع بين الفكر الأخواني والشيوعي وبروز البعث بعد الاستقلال.

وهذه الأحداث المتوجة غير منفصلة عن فضاءاتها الزمكانية التي تنفعل بالشخوص وتفعل فيها ما يمكن أن تفعل تحت ضغوط الجبرية وحتمية الواقع تأثرا وتأثيراً.

ويبقى هذا النص الروائي إلى كونه كشكل ومبنى من أدب الرسائل، ولكنه كمحتوى ومعنى يعد سيرة ذاتية كونه يرتكز كثيراً على تشخيص الذات، والتركيز على الحياة الفردية وبالخصوص على تاريخ الشخصية عبر نص سردي نثري اعتمد على استرجاع ماضي الشخصية أو الذوات الفردية في امتدادها الزمني وتعايشها مع الذوات الأخرى سلباً أو إيجاباً في مواجهة الموضوع من أجل فهم الحياة الفردية وتاريخها وتفسيرها بما هو فكر وممارسة واقع وتجربة حياة، تستخدم في تبيان كل ذلك لغتها الأدبية الشاعرية، وخبرتها الفنية التشكيلية العميقة في استكشاف النفس البشرية وقراءة الملامح والإغراق في التفاصيل الصغيرة، وهذا ماعبرت عنه الروائية نضال سواس في إحدى حواراتها قائلة: «لا يمكنني أن أفصل بين الفن والأدب أو أن أفضل بينهما، كلاهما بالنسبة لي جزء من جديلة تتشابك معها روحي لأكون أنا..»

ومن هنا يمكننا أن نلج بوابة روايتها الحالية «رسائل إلى ساندريللو»، حيث الفن علامة واضحة في تشكيل صياغات رسائلها، فتفرد مساحات للعتمة والضوء، تخاطب المتلقي بلغة لا تخلو من الشاعرية والتصوير، تتغلغل في أعماق المشاهد المتتالية، وتوغل مع القارىء نحو مسارات تخيلية يدركها القارئ الذي عاش في جغرافيات الرواية، فتبدأ سردها الروائي من خلال رسائل تحوي آفاق واسعة مفتوحة المدى، وأعماق فكرية فلسفية، من بيئة مفتوحة ترد رسائلها إلى بيئة معتمة ضيقة، من فضاءات حرة نجوب معها أماكن مغلقة وزنازين أنهكتها الرطوبة ورائحة البول ومن السطر الاستهلالي للرواية نقرأ تفصيل هام، فنهتم بالمتابعة، في محاولة فهم وكشف الحالة الروائية للشخصية التي سرعان ما نرتبط معها بوشائج قوية، فنكاد نعرف ساندريللو، وتمنحنا الكاتبة قدرة أن نخبر ساندريللو أشياءنا الخاصة، وأن نكاتبها، أن نخبرها

عن أمور سهت عنها تلك المرأة التي تكاتبه. ومن الاستهلال الروائي الذي يعد على درجة كبيرة من الأهمية في كتابة أي عمل روائي، فهي «التيمة أو الجملة السحرية» التي بها ليس فقط تبتدأ عملية السرد، وإنما هي تكثيف واختصار ومنبع لكل من السرد والحدث الروائي، فمن خلال هذا الاستهلال:

«أردتك بهذا أن توقف عملاً جنونياً قد تقدم عليه... في زنزانة ما... قابع أنت وأخشى هروبك.... رسائلك المسربة المشفرة أبلغك أنها باتت عابرة للقارات»

تمنحنا فرصة اكتشاف مذهلة لصاحب الاسم الإشكالي، ومن هنا نلتقط مفاتيح الرواية، وندخل دهاليز الفن والشعر والفلسفة والأحداث والشخصيات الحقيقية والافتراضية فمن زعماء إلى شخصيات خيالية سوبرمانية وهناك الإشارات المتوقعة حول ضيق المكان وامتداد الزمن، والتحويل المعتاد للمرأة، الأم أو الزوجة أو الحبيبة، لشخصيات أخروية خيالية، أو لشخصيات شديدة الطهر، بالإضافة إلى التمجيد الدائم للحياة خارج السجن، مكونة تجانساً لمواضيع السرد، وهذا التجانس في الجوهر والطابع والحالة، بصرف النظر عن الشكل، يحدث نتيجة للظروف المادية المتقاربة التي ينتج عنها أدب ملتزم أخلاقياً، تتوغل فاضحة عنصر العتمة، وتوضح حالات السجن والعزلة والانطواء، والانزلاق المؤقت أو المستمر نحو الجنون، فنشعر مع القراءة بضيق المكان، وامتداد الزمان، وكذلك حدوث تداخل وتشوّه في أشكال الذاكرة وألوانها، لتبرز الإحساس بالذنب مما يؤرّق السجين الذي يعاني الضيق أساساً، وهو ما توقفت عنده فقرات مسهبة من الرسائل.

رواية تعتمد استرجاع الزمن الضائع من خلال الشخوص ودورة الحياة والموت عبر الأمكنة والفضاءات المنغلقة والمنفتحة والداخلية والخارجية. وساندريللو باعتباره شخصية رابطة مثيرة عندها تتجمع الشخوص لتنسج خيوطها السردية لخلق حياتها وموتها. كما أنها تجمع

هذه الشخوص لتخلق فيها الحياة والدفء والاستمرارية عبر الصيرورة التاريخية. وهذه مختلفة الطباع والقسمات والرؤى تتحول مع المكان والزمان في تكيفها وصراعها مع الواقع المتميز بين الأمن والخطر، حيث واقع عسكري وفوضى معارك وأدخنة وانفجارات وقتل، وموت مجاني في حالة عبثية تهدد الوجود كل ذلك من خلال عملية فضح اللعبة السردية والحوار مع المتلقي عبر تأسيس ميثاق سردي يوثق العلاقة بين الأحداث والحياة، وبين الواقع والفلسفة إزاء عبثية الشخصية التي لا تؤمن بالدين وتضعه دائماً قاب قوسين، فتعيش حاضرها من خلال التفسيرات الآنية المرتكزة على واقعية تاريخية ومنهجية دقيقة باستخدام لغة شعرية تتمكن بها من مغازلة الحياة والثورة والتمرد.

وللبحث عن الفرح في التاريـخ، وإيجاد المعنى الحقيقي لكل مقولة ولكل حدث سجل فيما بعد كحدث تاريخي رمى ظلاله على واقع اليوم المتشابك، والمعقد، مع إصرار الكاتبة على إبقاء هارموني الدفء متواصلاً بين عتبات ماضوية ومنصات الحاضر الجديد وممارسة حالات تأمل قصوى في المكان وعبقه التاريخي.

كما أن الكتابة الروائية عندها نسيج وشواطئ من الذكريات حين تحتمي بركن من الذاكرة المتعبة فيولد النص مزيجاً من ذكريات فترة الشباب الأول البعيدة وأخرى قريبة راهنة حيث نلاحظ تكرار كلمة (أذكر، ذاكرتي، الذاكرة) وهذا الانصراف هو انصراف إلى تذكّر الماضي.

وعلى الرغم من شعورها بالقلق، فقد حرصت على أن تعبر عن إحساسها الفني باستعمالها بساطة المعنى واقتناص فني للصورة وللمشهد الشعري المراد التعبير عنه. فهي من خلال تعبيرها عن حزنها الذاتي تتطرق إلى مواضيع تهم هموم الإنسان في سوريا وهموم العالم العربي تاركة العنان لانفعالاتها وأحاسيسها، وبوحها ويمضي القارئ مع سيل الكلمات و المفاهيم وانسيابيتها كالموجة الواحدة التي لا يتحقق وجودها إلا في مساحات فكرية مجتمعية واسعة وعميقة..

«رسائل إلى ساندريللو» مشروعها الروائي بجزئه الأول، الذي اعتمد تقنية التراسل أو ما يسمى أدب الرسائل، وهو جنس أدبي تم استخدامه كثيراً في أعمال أدبية عظيمة كرواية «آلام فارتر» للألماني غوته، و «تحت ظلال الزيزفون» أو «ماجدولين» الرواية الرومانسية للكاتب ألفونس، والتي ذاعت شهرتها عربياً عبر ترجمة المنفلوطي، و «مذكرات زوجتين شابتين» للفرنسي بلزاك، ورواية «رسائل إلى روائي شاب» للروائي البيروفي ماريو فارغاس ياسا، ورواية «طوق الياسمين» للروائي الجزائري واسيني الأعرج، ولعل من أشهر الروايات اعتمدت أسلوب الرسائل بنية نصية، وسردية كحامل لفكرة أو أفكار الروائي كانت رواية «قواعد العشق الأربعون» للكاتبة التركية إليف شافاك، وأيضاً رواية «صاحب الظل الطويل» للروائية الإنكليزية جين بيستر الرواية الأشهر، والتي تعرف عليها أغلب جيل التسعينيات من القرن الماضي عبر أفلام الرسوم المتحركة، ورواية «دراكولا» للكاتب برام ستوكر الشهيرة على المستوى السينمائي كأحد أهم أفلام الرعب التي عملت عليها السينما.

وحديثاً تم الكشف عن رسائل الشاعر البرتغالي فرناندو بيسوا المرسلة لحبيبته أوفيليا، تحت عنوان «رسائل حبّ فرناندو بيسوا وأوفيليا كيروس».

ورواية «رسائل إلى ساندريللو» رواية تحمل عمق وأهمية تلك الروايات التي سبق ذكرها، وستجد طريقها ومكانها إلى جانب روايات ومكتبة أدب الرسائل بجدارة واقتدار، خاصة وأنها تؤرخ لحقبة هامة من تاريـخ جغرافية لها ما لها من عمق وألم، وإنجازات وخيبات، من إيمان أو إلحاد، من أفراح أو أتراح ومن جنون أو حكمة..

ندرك من قراءتنا للرسائل التي اشتهرت في تاريـخ الأدب والمرسلة عموما من الكتّاب إلى نساء ملهمات، وقد أعرب أغلبهم عن مشاعرهم وأحاسيسهم الجسدية المشتعلة بحميمية وشهوانية واضحة، أو

بمستوى آخر نجد مشاعر الحب الدافقة التي تخفي تلك المشاعر الخاصة المكبوتة تحت بهاء الكلمات ..

كما عند جبران إلى مي زيادة، وكلّاً من أنسي الحاج وكنفاني إلى غادة السمان، ومن النادر أن نجد امرأة تراسل رجلاً في تاريخ الأدب العربي، وخاصة الأدب الذي تم تدوينه في المهاجر والمنافي القصيّة حيث تبقى للرسالة مشروعية التنفيس عن الذات عبر البوح الحميم لشخص بعينه الذي هو في النهاية القارئ ذاته.

وإذا كانت رسائل كنفاني وجبران وأنسي الحاج حقيقية حملها ساعي بريد فإن رسائل نضال سواس، ضميرها الذي لم يغيب ورسائلها التي لم يحملها ساعي البريد، لا تتصف بأي نزعة شهوانية، فالمرأة لديها ليست ايروتيكيا للشهوة، وإنما ذات إنسان فهي تخصص تصوراتها التاريخية والاجتماعية للجسد بوصفه رمزاً دون الخوض بعلم الوظائف الحيوية، إنما تغوص إلى الداخل ولا تخضع لصالح حالة اجتماعية، أو لرؤية العالم ككل، وإنما تخترق الجسد كتعريف للذات، للفلسفة للعمق الروحاني، تدخل معنا داخل هذه الرؤية، تمارس الأحجية ذاتها، تدغدغ عناصر الجمال إنطلاقاً من فكرة الرؤية الذاتية ليس للجسد وحده، وإنما للعالم وللعلاقة الحميمية بينهما والتي تنقطع فجأة ليعيش الإنسان الفرد حالة اغتراب، بعيداً عن الموجودات، هكذا تعامل نضال سواس الشخصية الرئيسية في روايتها، فالأنثى هائمة غير مستقرة، دائمة البحث عن أماكن قصيّة، تبحث عن عالمها النقي والأكثر بهاءً وعمقاً، إنها تمارس الفكر وأعمال الفلسفة بشغف جمالي وتثير دوماً تساؤلات متنوعة عند المتلقي تجبره أن يقترب أكثر منها، أن يتحول إلى سجين يرهقه الانتظار، انتظار رسالة جديدة.

الكاتبة تحاول وعلى مدى 35 رسالة موجهة للسيد «ساندريللو» أن تنقل إلينا تصورها عن وقائع حدثت في الفترات القريبة الماضية، وعن الراهن، كما تبحث في إعادة تعريف بعض المفاهيم اليومية أو

المصطلحات المجتمعية ومفردات يوميات مواطن يعيش في بلاد تحلق في سماواتها غربان سود، وتعيث بأرضها وحوش لا تتقن سوى لعبة القتل، ولا تنسى أن تعيد القارئ إلى مراحل مضت، ومازالت صدى إيقاعاتها ترتد لتشكل نظاماً معاصراً مختلف الرؤية، ضبابي مشوه، حيث مجتمعات مدنية غارقة في الضوء، ترتدي أقنعة هاللوين، تعيش رغم اكتمالها تشويهاً يمزق روابطها الأسرية، والمجتمعية، إزاء مجتمع تناسلت وخرجت منه يمزقه الحسد والحقد والكره، يعتنق الكذب كمخدر تعويضي، مجتمع بائس يائس يتقن إشعال الحروب. بصور «الحياة التي تتراوح ما بين المتعة والألم»

تتحدث رسائلها عن مواطن يحاول عبثاً رتق صوته، وأناشيده، نتعرف إليه عن قرب عبر الصورة أتقنت الكاتبة تصويرها بتقنية سردية، تجيد إظهار بواطن الأمور ودواخل شخصياتها، فتغلغل نحو العمق تحلل المحيط الاجتماعي الفكري والاقتصادي، تعري تفاصيل عديدة، وتحدثنا عن وطن يرتدي بزة عسكرية، وطن تفوح منه رائحة اللحم المحروق وترتفع أعمدة الدخان من حقوله، وسهوله، وبحره متكدر تنكره ملوحته، يرمي دونما اهتمام زبده على هامش ثرثرات لا طائل وراءها...

فالرسائل تحمل أسماء حميمية، لأشخاص وأماكن وتحمل إلينا عبق دافىء من ماض قريب، يزهو برونق الشباب، ودمائهم الحارة، ولذاك النهم والجوع المزمن للقراءة فكأنه لا يستطع أن يروي عطشه وفضوله من نهر الفكر والأدب، وتمر بحقول شاسعة من الأدب، تقود ساندريللو إلى سهوب روسيا تخبره عن منابع الأدب الروسي، وسوفياتاته فلا ننسى آنا أخماتوفا الروسية، ورسول حمزاتوف الداغستاني، وعرب شاميلوف الكردي، وهاموساهيان الأرميني، وجنكيز ايتماتوف القرقيزي.. تلك الكتابات الطافحة بمفردات الصراع الطبقي والماركسية والبروليتاريا، والثورة والإيديولوجيا، وتحمل أسماء مدن وقرى روسية، بل وأسماء ساحاتها وشوارعها، أسماء باتت خبزاً يومياً لجيل بل

لأجيال كاملة كـ«تولستوي وغوركي وتورغينيف وبوشكين وتشيخوف، وديستويفسكي إلى جانب أسماء نهلت من ذاك النبع كـ ناظم حكمت، ومحمود درويش، وغادة السمان وأحمد فؤاد نجم وأحلام مستغانمي وسليم بركات وأنسي الحاج ونزار قباني ونوال السعداوي وسعدالله ونوس والماغوط...»

جيل كان يلوذ بمعطف غوغول من صقيع أسماء محلية، جيل كان يصرخ مع الشيخ إمام وسميح شقير وجوان حاجو وأحمد كايا ومارسيل خليفة وخوليو...

يمكننا القول إن الفن الروائي من أكثر الأجناس الأدبية تعبيراً حيث تشمل الحكاية أو القصص القصيرة، والشعر والنثر حاضنة للتاريخ عبر ذاكرة نصية تتوافق مابين الحدث الماضوي القريب والرائي المستقبلي التنبؤي البعيد، كما أنها قادرة على إخضاع السياسة والفلسفة بكل خطاباتها وتعبيراتها ضمن شرط التمثل السردي الروائي وبذلك تحافظ الرواية مثلها مثل الفن المسرحي حيث الأكثر أهمية وإنتاجاً وتشخيصاً لمخاضات المجتمع ومتابعة تحولاته ومقوماته، وضم أكثر من جنس أدبي في أحشائه..

فالروائية نضال سواس ومن خلال روايتها تتخلى عن رسم شخوصها الروائية وتختزل لغة الحوار المتبادل، موجهة تعابيرها ومقولاتها في عملية خطاب مباشر نحو الآخر دون أن نحظى برد الآخر ذاك الخطاب الروائي المعبر عن العنوان الفرعي للرواية المضاف كصيغة تعريفية (ضمير لا يغيب) كحالة خاصة حيث نجد التراسل أو الإرسال من جهة واحدة باتجاه الآخر وهو نمط استطاعت الكاتبة إنجازه وملء الفراغ الناتج عن عدم وجود الأجوبة أو الردود حول كل المسائل التي تطرحها، ونستطيع قراءة أو التكهن برد أو ردود الآخر حول عدة قضايا يتم نقاشها ومعالجتها فكرياً أو تاريخياً هي قضايا تتحدث عنها في كل رسالة، وذلك كإصرار من الكاتبة على ذكر كل الأمور والأحداث

بمسمياتها، وإن كانت في أغلبها مجازية، كما أننا لا نكاد نفتقد لجوهر كل التناصات التاريخية والسياسية والفكرية، بل وتلك المساحة الشعرية التي تنبئنا عن صور شعرية تخدم الرسالة بمضامين اجتماعية عاطفية وتثريها، وتجعلها أكثر تماسكاً من لغة الإعلام أو التقريرية التي ترهق الشكل الأدبي وخاصة نحن إزاء رسائل من شأنها أن تقدم لنا الحدث أو الفكرة عبر تقريرية مقيتة فتفقدها عنصرها الحكائي الهام، لكن الروائية نضال سواس تفادت السقوط في فخ التقريرية واقتربت من المتلقي بخلقها لحالة فضول قصوى، وخاصة أن الرسالة تمنحها عبر استخدام ضمير المتكلم وهو ما يتم عادة في تناول كتابة الرسائل المراد إرسالها بصيغتها الأدبية كعمل أو كرسالة خاصة موجهة لشخص فرد ما وضمير المخاطب بالضرورة وأيضاً كي تخلق ذاك التفاعل مابين المنتج(الروائي) والمتلقي (القارئ) حيث تحافظ على العلاقة عبر ضمير لا يغيب، ضمير شاهد متابع لكل حركة ولكل كلمة ولكل غصة آهة وهو الأمر الذي يجعل من «رسائل نضال سواس» وثيقة روائية لزمن صعب، وصعب جداً...

وهي حالات تعيدها «رسائل إلى ساندريللو» وفي زمن افتقدنا فيه ساعي البريد الرسائل الورقية ذات الطوابع حيث كانت تحمل الكثير من الشغف واللهفة في أحشاء جنين الانتظار..

هكذا كان الزمن رغم قبحه جميلاً، كان يبشر بنهارات قادمة لها نكهة مشرقة، ذات ألوان أكثر بهجة للعشب و للسماء، والبحر والحجر..

المرسلة هنا تواظب على إرسال رسائلها إلينا.. دون طوابع ودون مغلفات..ودونما انتظار، فقط ممهورة بطابعها الروائي الخاص، وببصمتها والمغلفة بدفء مشاعرها وأحاسيسها المتقدة بذاكرة نشطة وبعيدة المدى، فالرسائل دافئة تحمل لهفة حرّى، تسرقنا من زمننا، تمنحنا كمية من الفضول، كمية فضول للمتابعة والغوص في اكتشاف كل جديد يصلنا من كاتبةٍ تقيم في مكان بعيد، مكان له خصوصية

إعادة النوستالوجيا بمستويات تمتلك شهوة الغرق في الأمكنة،قادرة على قيادة قرّاءها في زحمة الشوراع دون أن تتيه أو يتيه قارئها اللاهث خلف أموراً تشده لمتابعة القراءة وبهذا فهي تنشىء علاقة تبادلية مابين المصدر والمتلقي،عبر تمكنها من ضبط عمليتي الحامل والمحمول في تنويعاتها السردية فالمبنى اللغوي قادر على حمل المعنى المراد إيصاله للمتابع، فالكاتبة نضال سواس التي طالما كان الجانب الفكري والفلسفي رسالة تحملها على عاتقها في حلها وترحالها، ليس على المستوى الأدبي الكتابي فحسب، وإنما عبر خطوطها ولوحاتها وطبيعة أسلوبها التشكيلي في توزيـع اللون على سطح لوحاتها أيضاً..

ساندريللو نتعرف إليه عبر الرسائل التي تخاطبها وفي الجانب الآخر نكتشف تفاصيل دقيقة عن تلك المرأة التي تراسله فهي امرأة نقية، جميلة قد أرهقها الضباب والصقيع، وسنوات الغربة، وهي تتنقل من بلد إلى آخر، فإنها أيضا تخاف الاقتراب، وتعيش ظروف عزلة واكتئاب، ولمّحت في أكثر من رسالة أن حياتها أشبه بحياة سجينة تعيش واقعاً مزرياً، يوقظها حلم ما، صرخة تتكرر إلى درجة الذهول حلقت في فضاءات بعيدة، مارست حريتها في مخاطبة البعيد القريب إليها، جعلت من روحها عاشقة للأحجيات السياسية وللأسرار التي دثرها غبار السنين ومكاتب موصدة دارات فيها الدوائر، فتناغمت معه بمشافهات عبر نزعة فكرية فلسفية شعرية تتحسس مفهوم ممارسة الحرية، حيث يقترن عندها الفكر بالممارسة، ومزاولة الحرية عملياً وليس كمفهوم، مع إدراكها «أن حرية التعبير لا تتضمن حرية الصياح بكلمة "حريق" في مسرح مزدحم» حسب تعبير أوليفر هولمز، ولكون الفكر عملية رياضية ديكاراتية، لا تقبل إلا العقل ميزاناً وحكماً حسب لافوزيه، وهي تنشأ حوارها الداخلي مابين خطين متوازيين حيناً أو متقابلين حيناً آخر، بل ومتضادين في نواح أخرى، حوار بينها وبين الرائي، المتلقي، تتعمد أحيانا الابتعاد عن الفلسفة كعقل محض حسب تعبير كانط منشئة حواراً معاكسا مضاداً حسب التعبير الهيغلي الماركسي لوحدة الأضداد وصراعها..

تنقل لنا وعبر رؤيتها العملية مشاعر العزلة او التيه في العماء والوحدة،والغياب والألم، والتي ربما عاشت حالات قاسية من الاغتراب في وطنها سوريا الا انها لازالت و عبر رسائلها تعيش في قلب مجتمع كبير لا تؤمن بحدود العزلة او الوحدة، وإنما تمد جسورها من بلاد الصقيع إلى بلاد أكثر دفئاً وليس كحالة مناخية، وإنما حالة معايشة مع الواقع الاجتماعي

الوطن مسمار، ومعطف، ومقعد فارغ وكأنها تردد مع غوته نشيد المنفى..

عبدالوهاب بيراني
كاتب وناقد سوري

الكاتبة في سطور:

_نضال سواس (كاتبة و فنانة تشكيلية سورية _حلب)
_دبلوم ترجمة _أدب فرنسي
_خريجة كلية الفنون الجميلة
_عملت بالصحافة والتدريس
_درست الفن لطلاب العمارة والفنون الجميلة
_عملت مترجمة من الفرنسية والانكليزية
_درست الفن لذوي الاحتياجات الخاصة بمعهد خاص لها وتولت الإشراف عليهم وتدريسهم
_تعمل بالنقد التشكيلي
تكتب الشعر والدراسات الفكرية والفلسفية
_لديها عدة بحوث ودراسات نفسية مهمة تتعلق بالفن والفكر لدى الأشخاص الذين يعانون التوحد
_تكتب المسرح، لديها عدة مسرحيات ومنها :
*حوار مع الذات
* بيادق بلا خنادق
*المتأفف
وفي الشعر لها:
*نيرونا
*نثيرات

_تم عرض العديد من مسرحياتها على مسارح في السويد
_لها كتب نقدية وفكرية عن الفن والأدب والفلسفة ومنها:
*ماذا عن الفكر
*تساؤلات
*إشكالية المعرفة عند الفرد العربي
*ماذا عن الفن
*الفن الوحشي

_أقامت معارض فنية تشكيلية عديدة في العديد من الدول العربية والأوربية.
_تقيم حالياً بالسويد وتعمل في تدريس الفن التشكيلي في معاهد ستوكهولم (مادتي الرسم والنحت).

الإهداء

إلى ابنتي..

وابني..

إلى ذاكرة حلب..

مع كل الحب

الرسالة الأولى ((1))

اعذرني إن كنت قد بدأت بنشرها... ساندريللو .

أردتك بهذا أن توقف عملاً جنونياً قد تقدم عليه... في زنزانة ما... قابع أنت وأخشى هروبك... رسائلك المسربة المشفرة أبلغك أنها باتت عابرة للقارات..

ساندريللو... هنا وهناك وفي الأبعد... ثمة ومضات قد تغير معها شكل علم أو راية ومازلنا أنا وأنت نبحث في مفهوم الإيديولوجية كيف لنا أن نطرحه كفكرة لامعة تنير عقل من لم يتسنى له فهم حدود إدراكه وعقله بعد...

أخبرتك حين حددت زمننا بساعات معينة أنك تحاول محاصرة زمن بختم في أسفل الحضور... أخبرتك بأنك ما كنت لتحيد بقعة من فراغ زمني بانتظار عودتك..

قابعة أنا في الانتظار... لكن ليس انتظاراً محايداً... ما زلت أفكر بصرخات استغاثة كنت أراك تطلقها من بوق تحمله وسط شوارع الصمت والحياد الأبله... ألا تراه معي أنه حياد أبله.. ذاك الحياد الذي يصغي بعيون مشدوهة... كنت تصرخ وتدور تدور ألم تتساءل إن كانت كلماتك تدور في دهاليز عقولهم...؟

ساندريللو... حتى لاسمك معنى الاحتراق فيم كان احتراقك حتى أمسيت رماداً متحركاً بعصف الحقيقة؟

تسعى إلى كلمة مفقودة... نسيت أن أقول لك أن هناك الآن استحداثاً في علوم النحويات واللسانيات يغفل بعضاً من الأحرف وبعضاً من الصيغ... بل وبات مجازاً حتى في الإلغاء... ربما يا صديقي في عصر الاختزالات عصر النزق... النزق من الأمل.. النزق من المطالبات غير المجدية...

ساندريللو...

تقول لي ستغيب حتى الأول من... بعيد هو هذا التاريخ... تنتظر أفقاً من حرية.

الأوراق ..تاهت بالأفق... .كان لها كل الأفق حتى تاهت....وهل يبحر في السماء إلا الأفق...تاه كل شيء حتى الأفق ما خلف زنزانات الانتظار

الرسالة الثانية ((2))

كنت ما أزال أحملق بتلك الروزنامة القديمة.. مسمّرة على جدار أصفر له لون الصمت.. غريب هو ما اعتدناه من تسميتنا لها روزنامة كلمة فارسية الأصل بتركيبتها كما كل الأشياء التي باتت مركبة في حياتنا:

روز تعني يوم/ نامه تعني كتاب... ألا تلاحظه معي هذا التداخل الدائم بيومياتنا.. إن كنا ببداهة سذاجتنا لم نحتط حتى لإحاطة تاريخنا فما بالك بتواريخنا؟... ثمة دائرة تحيط بتاريـخ غربي.. أعياني التفكير في لا جدوى تقسيم هذا التقويم إلى قسمين أحدهما تقويم شرقي وآخر غربي ومازلنا إلى الآن نحتار في معادلات التوازن ما بين شرق وغرب.. يمين ويسار... آه ساندريللو تجدني دائمة الثرثرة والتساؤل.. تطلب مني تلك العلبة الصغيرة كنت قد أودعتها في صندوق خشبي له شكل السحارة... أو لعلها سحّارة اعتبرتها صندوقاً... هكذا هي حال البسطاء يودعون عظائم أسرارهم باحتفاءات لها قدسية الاعتزاز بأي رابط له ذكرى أسرية.. أشعر بوخزة في طرف كفي ثمة مسمار متمرد على جانب قطعتك الأثرية هذه يا ساندريللو. علي أن أمسح قطرات الدم التي انبثقت من كفي.. لم أجدها بعد، علبة أوراقك التي حدثني عنها.. انتظر، ثمة من قام بإفراغها ووضع محتوياتها في ظرف كبير...

وجدت جواز سفرك... وكاتالوغا مهترئاً يضم طوابعاً بريدية... وصورة شبه ممزقة لتشي غيفارا..

بماذا كنت تفكر..؟ زجاجة عطر!؟

غريب أمرك.. لا أعلم بكل الأحوال أنت ثلة من المتناقضات...

الخامس عشر !!! التقويم نعم تلك الدائرة على تاريـخ في التقويم تحيط برقم 15

الرقم ذاته الذي وعدتني بظهورك فيه

حتى هنا أيضاً رقم خمسة عشر...

الخامس عشر كتاريـخ هو الرقم الأوسط في الشهر كما الحيرة أنت تقف أنت في الوسط من كل الأشياء أجدك عند الخطوط الوسطى المنصفة... وتختار الساعة الثانية عشر ليلاً من هذا التاريـخ... هو النصف الحائر أيضا ما بين الليل والنهار... تذكرني بدكتور فاوست لغوته. تراهن، تغامر بكل تام مع كل تام آخر.. فرضية الحصول على كل شيء مقابل خسارة كل شيء.. أنت تتراقص بتوازن لاعب سيرك على حبال المطلق وبلا نهاية.

خائفة أنا عليك، قوية بك، هزيلة بدونك.

أعلم نعم أعلم تماماً أن ما أقوله هو محض تكرار سمج لجمل معهودة... لكنني خائفة.. في كل مرة أكتب إليك بها ويكون التاريخ هو الخامس عشر أكون واقفة تماماً على بساط أرجحية الأمل بظهورك ويكاد يدميني ذاك الانتظار كما لو أني أقف حافية على بساط من زجاج مكسور... مرهق هذا جداً.. أكاد أربطه بذاك الانتظار لصوت طلقة في لعبة روليت روسية...

أخشى معها رصاصة حقيقية تزيل من تلك الروزنامة هذا التاريـخ.. صدقني أخشى هذا جداً..

حلمك بحقيقة مثالية شيء ربما هو أبعد من الصواب.

لا أعلم لم جال ببالي الآن تروتسكي بفكرته بثورة اشتراكية تسود العالم كله، ثورة أممية. ثورتك أنت التي تبغيها، هي تلك الأممية الإنسانية بطابع العدل والحق والمساواة.

تغتال تلك الأفكار حين تتعارض مع نظيرها مع اختلاف التوجهات.. قلت لك أن مشكلة العالم هي بفهم وتحديد أيديولوجيته مع مراعاة الفوارق.

أنا أرى أن الأمم كالنباتات لا تتساوى بنموها إلا بحسب ظروفها حضارياً وتاريخياً لا يمكن قطعاً لتلك المثالية الأممية التي تراها أن تتماشى معاً بخيط سير واحد.. هذا شبه مستحيل...

مانديلا لم يكن لينجح في هولندا مثلاً كما غيفارا لم يكن ليكون ذاته بألمانيا وكذلك الأمر لدى ستالين أو حتى تاتشر أو ميركل... لكل بيئة ما يماشيها.. لنبحث أولاً عن الوعي إن تقارب منسوبه بين الأمم حينها قد يكون ما يمكن تسميته بمشروع إنساني للأممية.

وجدت أوراقاً أخرى... لا أعلم إن كانت هي ما تبغيه من هذا الصندوق... ثمة صورة ذات خطوط منكسرة لرجل عجوز وبحضنه طفلة صغيرة.... كم جميلة هي عيناها... تبدو سعيدة وهي ممسكة بعود مغروس بتفاحة مغطاة بقشرة سكر.. أسمع أصواتاً في الخارج ولا أعلم كيف لي أن أخرج الآن وبيدي هذه الأوراق...

الرسالة الثالثة ((3))

عزيزي ساندريللو

كنت لا أزال أردد كلماتك اليوم بداخلي عن اختراعك لملاذك الخاص الذي يعفيك من التورط بنخبوية الأحاديث مع متفذلكي هذا العصر المتخم بالعجز والتردد... تبتعد عن كل ترهاتهم إلى حيث تكمن حقيقة الوجع... لكنه مؤلم يا صديقي أن تستسيغ مضغ مرار الحقيقة لوحدك... التأملات اللامجدية في عالم محاط بأسوار الظلم والخديعة... أنت لا تعلم أنني ما زلت أسمع صوته في كوابيسه فأجد نفسي وقد أخذت أصابعي رغماً عني بخدش الجدار الذي أستند عليه ..

تتحدث أنت عن أسوار للظلم... وأصغي أنا إلى أصوات الألم ما بعد الجدار.

مابين الأسوار والجدران ألف إشارة استفهام بلهاء تبقى معلقة على ذاك الخط الوهمي الفاصل... بانتظار الإجابة

إجابة كلانا نعرفها مغلفة بأوراق التغافل.. نعم لكنها أوراق مخرشة... كما التواريـخ.. كما الحقائق... بل كما حتى الافتراضات... صدقني نلقيها برعب... كمرساة من ورق... في بحر... لكن حتى بحرنا هذا الذي نتعامل معه بحر من حبر... وقد يكون حبراً سرياً.. عدة إبحارنا فيه هي الرموز لا أكثر .

ساندريللو أعلم أنك تتثاءب الآن بملل من بعد انتظار لما هو مهم.. كل ما نتعامل معه هو عالم المجردات... نبيع ونشتري معان مجردة... هي نوع ما تجارة العقل... وعملتها المتداولة هي أرواحنا... ثمة سؤال يثير القلق عزيزي ساندريللو... تتغير العملات مع الزمن وتصبح غير قابلة للتداول ..وبعضها يهترئ حيث تكون مركونة أو تتآكلها الفئران أو حتى الغبار ..هل عملتنا الفكرية ينطبق عليها هذا؟

المضحك أن ما يكون في زمن ما مركون ومرمي من العملات دون أي فائدة... يصبح مع الوقت قطعا أثرية نادرة... فقط هي قيمة الزمن بالنسبة لتلك الحالة وليست مطلقاً قيمة المادة... نتحدث بالفكرة بالمعنى بالقيمة الأخلاقية نتحدث بالحق بالعدل بالمجردات في عالم لا يؤمن إلا بالمحسوس ويرفض المطلق إلا بما يخص السلطة اللامتناهية والعبودية اللامتناهية في هذا فقط تجيز رعونة هذا العالم النتن حال المساواة والتكافؤ ما بين هذين المعنيين المجردين.

لنعد إلى ماتريد أنت نسفه من أسوار للظلم ..كيف؟ وأنت جدران زنزانتك لا تستطيع أن تبعد إطباقها عن أنفاسك؟

أريدك أن تصمد أكثر تخبرني أنك مرهق عليك أن تكون قويا واضحا وسليما من الداخل لا تترك الأحداث التي تمر بها تشوه روحك... بالعقل والحكمة لا بالنقمة تذكر هذا دائما ..كنت تقول لابنتك في ذاك المساء أن الكائنات المشوهة من الداخل لا يمكن أن تكون قادرة على الإسهام في تغيير العالم فكيف إن كانت تزعم بامتلاكها لمفاتيح تغييره؟ قانون انتفاضي داعم للإنسانية قادر على إزالة مفاهيم مؤداها جميعها إلى تلك الديكتاتورية الساحقة التي باتت قفصا فولاذيا تكتظ بداخله أطنان من قضايانا الإنسانية المضغوطة .

العالم في الخارج نباح وسعير وهشاشة في المواقف السياسية وما يجمع كل هذا في بوتقة واحدة إنما هو المصالح الاقتصادية وربما أكثر من كان واضحا في نشر وصل إليه من سبر للحقيقة والعمل على

تعزيزها كان لينين بحيث ربط السياسة بالاقتصاد وجعله مرجعتيها الأولى حيث رأى أن السياسة هي تكثيف للاقتصاد بحيث تصبح الخيارات السياسية رهينة بالحالة الاقتصادية

لكن اليوم أصبحت السياسة تبتدع محاورا إقتصادية جديدة للغوص فيها والتوجه إليها عبر مخططاتها... فلم يعد الحاضر الراهن فقط هو الأساس بل الأطماع التي تحور هذا الحاضر الاقتصادي بشكل يكون أكثر ملائمة لها .

الرسالة الرابعة ((4))

من جديد أعود إليك وأنا أعيد ترتيب أوراقي المهترئة، في تلك السندرة كنت جالسة القرفصاء وأنا أحاول بصعوبة جذب صناديق كرتونية يعلوها الغبار، كنت ما أزال أبحث عن صورة لشهادتي الجامعية .. لا أعلم لم وضعتها هناك بهذا الإهمال، ربما لأنني ما اعترفت يوما بالشهادات إلا كتحصيل حاصل لمراحل يمر بها الإنسان في سبيل الانطلاق منها نحو دراسات أهم... .

كنت أعتمد على حاسة اللمس بمسام أصابعي وأنا أبحث هنا وهناك بين هذا الكم الهائل من الأوراق إلى أن تلمست بأصابعي هشاشة بالغة النعومة بملمسها تحسست أطرافها اكثر فإذا بها اهتراءات... .

أثارني فضولي لمعرفة ما بهذه الأوراق بدأت بجذبها برفق لأجد أنها صحيفة قديمة مهترئة لكن مطوية بعناية... بحثت بعيني عن التاريخ .. بداية الستينيات ..صفحة تحمل عشرات المقاطع الصغيرة يفصح كل واحد منها بدوره عن تبرؤ صاحبها من انتسابه إلى الحزب الشيوعي... ذكر لأسماء أصحابها معظمهم من الطلبة الجامعيين أو من المتخرجين الجدد....كان هذا التاريخ يعود إلى عهد الجمهورية العربية المتحدة...

يأتيني صوت جدتي من بعيد يخترق جدران التساؤل ويمزق ضبابية الفكرة بمشهد لم أدركه يومها كان يحلو لجدتي تلك الشركسية المثقفة أن تتحدث بالسياسة وبحقوق الإنسان على قدر ما كانت تسمح لها ثقافة ذاك الزمن :

السلطة ضابط شرس لا يرحم

سجن العديد في ذاك الوقت وكانت أصوات التعذيب رهيبة جارنا إبن نبيهة خانم فقد سمعه أثناء التعذيب ..مع الوقت يوما ما ستفهمين يا صغيرة أنهم لا يسمحون للفكر بالتجول بأروقة الحرية... الأفكار كما الأذرع المعلقة بالقيود ستتقرح بالجروح وقد تصاب بالتسمم... بعض الأعضاء المجروحة المسممة تبتر ..ولهذا... فالكثير من الأفكار أيضا ستبتر .

كنت أسمعها بطريقة طفولية وأستغرب جدتي

أراك تدافعين عن الفكر الشيوعي وأنت التي تستنكرين إنكاره للذات الإلهية ..لماذا؟

كانت تأخذ بهز رأسها وتجيب ليس هذا هو الموضوع بل أن السجون مليئة بجماعة الإخوان أيضا، ترين أن المجموعتين هما على طرفي نقيض كلتاهما لها فكر يناقض الآخر ..ليس هذا ما أحاول أن أقوله لك... بل الحجر على التعبير على الفكر كائنا ما يكون بهذه الطريقة دون أن يمنح الإنسان الفرصة لبسط مجمل الأفكار والنظريات بشكل سلمي ليختار منها ما يشاء .

سيجد الإنسان نفسه مع الوقت أمام حزب واحد وفكر واحد مفروض عليه وهذا بحد ذاته استعباد لحرية الرأي .

_هل ترين أن هذه الأحزاب صحيحة؟

_ لا أقول أنها صحيحة لكن يجب أن نفهم ما يحيط بنا من أفكار ونظريات... يجب أن نرى العالم بمنظار شمولي .

_ حتى يكون لنا الحق باصطفاء ما يناسبنا وماهو منطقي وأقرب لإنسانيتنا .

كانت كثير من الأحاديث تجري بيننا أنا والجدة... كنت أفهم من خلالها معنى الرحمة ومعنى الإنسانية ..معنى القسوة ومعنى الاستبداد .

عزيزي ساندريللو حين يسير بعضنا بالشوارع حاملين أبواق ننادي من خلالها بأهدافنا... لن نستطيع التوصل هكذا إلى ما هو إيجابي فعلاً.

قد تستحثنا اللحظة فقط للحماس ومن ثم نمضي... لكن؟

ما أريد قوله أننا حين تطرز كلمات الحق مع نسيج أرواحنا منذ طفولتنا... سنبقى أمينين عليها ما حيينا لأنها باتت تشكلنا .

كنا نتساءل أنا وأنت كيف؟ لم؟ وحتى متى؟

الأجدى بنا أن نغير السؤال إلى

منذ ما قبل الأمس وما قبل الولادة ..إلى ماقبل نقطة الحليب الأولى بفم طفل أن تتدفق قوانين الرحمة والعدل والإنسانية مع جرعات العطاء إبان مراحل تربية أطفالنا ..

تذكرت للتو ما كان منك من توق للسفر... أعلم أنك لا تسافر الآن إلا بالحلم... لم أسألك هل في غرفة سجنك نافذة بقضبان حديدة؟

وهل تخط على الجدران خطوطا صغيرة تمثل أيام وسنين تواجدك؟

ما أسخفني وما أقساني... وكأنني لا أعلم أنك مكبل بالأكثر بظلم المرتعش تزحف عبثا بين أخاديد الصمت تحاول أن تفرغ من جمجمتك صرخات تهويل وتعجز يداك عن أن تسجل تواريخا تعاف ذاتك ذكراها ..

ساندريللو... لك أن تنقشها هناك على السماء ..افكارك... أحلامك... صرخاتك ..السماء نقية ..لن تتلف أبجدية روحك يا صديقي ..مازال هنالك بضعة أيام على موعدنا للتواصل... سأرسل لك رسالتي قريبا .

((الرسالة الخامسة)) (5)

عزيزي ساندريللو...

لم أجد تلك اللفافة التي أوصيتني بإحضارها... دائمة التواجد أنا حيث غبار الذاكرة... أقتحم وميضا ذهبيا حيث بعض من صوت لمن مضوا ..غريبون نحن في عزلتنا أنا وأنت ..أسوارنا بشر من حجارة لا ننتمي إليهم... محاصر أنت بجدران سجنك كما أنا... صدقني ساندريللو لكلينا الغربة ذاتها... قرع الطبول هو ضجيج الكذب،ضجيج الوعود...

كلانا نرتجف من صقيع برودهم... محاطون، مسورون، مهمشون وراء أعمدة إهمالهم لنا ..

أسألك ماذا عن أرضية سجنك؟ تفوح منها رائحة بول من سبقوك إليها؟

لا ينظفون ... نعم يتركون كل شيء للقذارة إلا أنهم وأقصد أولئك ولا اقصد من سبقوك في معزلك هذا، بل أولئك ذوو البذات الرمادية والقمصان المنشاة... تعلم تماما أنهم منكفؤون على كراسيهم يجددون تلميعها... هذا ما يجيدونه... ...

لا شيء تأخرت قليلا كنت أتلفت حولي... ما بين جدران،لغات مختلفة... بعضها لغات متسربة... تفهم ما أعنيه ..

شيء ما يلتمع بين طبقات الورق ... كم مضى من الزمن... ستقاطعني إن كنت الان أمامي وتصرخ قائلا... ليس هذا بوقته الآن.. لكن... أمهلني قليلاً لأفسر... صليب فضي بين أصابعي

يا لهذا الصليب الفضي الصغير... أتلمسه بحب وحنين... هدية راهبة بمدرستي لي... أضحك بألم... تراها هل سمعت يوماً عن الاستنساخ؟ لا أظن هذا فقد مضى حوالي نصف قرن على هديتها لي..

ربما كانت لتعلم حينها أن كل واحد منا بات مسيحاً بطريقة ما.. هذا إن كانت الفكرة عن حمل صليب العذاب.. صليب الخلاص... ولاااااا خلاص صديقي لا خلاص.

ههه تضحك أنت الآن بمكر... نعم صديقي الصغير صديقتك عجوز الآن لا أنكر هذا... أعود إلى هذه الهدية أذكر أنني يومها كنت قد أبديت إعجابي بها، ربما كان هذا لشغفي بكل ما هو فني كنت أرى بها قطعة فنية بالوقت الذي أرادت هي فيه أن تلفت نظري إلى معناها الإنساني... كانت قد أحبت مني اهتمامي بالأدب.

أذكر يومها، كان بيننا حديثاً مطولاً عن كتاب كوخ العم توم... كنت أقتنص لحظات الاستراحة من درسي البيانو الذي كانت تعطيني إياه لأثرثر عن كتب أقرأها... كنت أحدثها بانفعال عن أحداث الكتاب وتعاطفي معه... فما كان منها إلا أن أخرجت من صندوق خشبي قديم ذاك الصليب الصغير... أذكر حين مدت إلي بيدها لتضعه بكفي فرأيت حينها ما كان شكل ختم لصليب وأرقام تمثل عام حجها لبيت المقدس... رأتني أتفحص معصمها فوضحت لي باعتزاز عن سبب هذا الوشم... آه يا عزيزي... تصور.. بصمة من فلسطين تغلغلت بجلود الكثير من مسيحيي شعبنا... كان هذا متاحاً يومها...

الآن لا تجد سوى التاتو كنوع من الفنتازيا العصرية لا يمثل سوى خطوطاً تزيينيه أو بعض رموز لعاشق متباهي.

أحياناً أجد البعض قد وشم أرقاماً فأتساءل بسذاجة المهاجرين أتراه قد سجل الرقم الوطني أي الرقم الرباعي كي لا ينساه..؟

تبحث عن سيجارة؟ لم أسألك إن كانوا قد سلموك النقود التي أرسلتها لك لتشتري دخانك... أتعلم شيئاً.. بعضهم اعتاد قول دخن عليها تنجلي... قمة التفاؤل اليائس أو ربما العكس صحيح... ما الذي سينجلي؟ أهي الغمّة أم... عمى البصيرة أم ماذا...؟

الأمور باقية على ماهي عليه... بالنسبة لسؤالك السابق... ما أعرفه يقيناً هو أن الرصاص مادة الرصاص تحديداً هي مادة كتيمة صعب اختراقها... فما بالك بالرصاص؟ أنهار الرصاص المتدفقة عبر الحدود؟

هههه تسخر بأنه من أين لي المعرفة بأن الرصاص مادة كتيمة تمنع تغلغل الأشعة.. سأقول لك ما يضحكك ربما... بعض من ثقافة المجلات المصورة الطفولية.. كأطفال كنا نعلم أن سوبرمان لا تستطيع أشعته أن تنفذ بجدران مصنوعة من الرصاص..كلنا كنا نحلم بكائن خارق يحقق العدالة... مفهوم العدالة ربما كان مجرد فكرة طفولية... لم تكن مستبعدة بأعمارنا تلك... كان من البراءة أن نحلم بالعدالة والحق..كنا نجد هذا نتيجة طبيعية لحرب الخير والشر... هههه.. تصور أننا كنا نؤمن حينها أن الغلبة ستكون دائما للخير.....ياااا للسذاجة!

لكن لنعد الآن إلى موضوع الرصاص ..

ألا يجعلك هذا تتساءل ماذا عن العيون السليمة عيون الرقابة التي تبصر بكل شيء وتتغافل عمّا تريد التغافل عنه..؟

اعذر ثرثرتي قليلاً.. .مشتتة أنا عزيزي... لم أجد بعد تلك اللفافة اللعينة... لم توضح لي كيف لي أن أحظى بها.

الرسالة السادسة ((6))

عزيزي ساندريللو

يحدث أن تجد نفسك بلحظة ما حزيناً للغاية... لحظة لا تستطيع أن تفسرها... لحظة تقف فيها مع نفسك تسأل عن لا شيء وعن كل شيء وتجد نفسك عاجزاً تماماً عن الفهم عن التفسير... كل ما تمنحك إياه هذه اللحظة هو وضعك أمام مرآة عملاقة تمتد على طول خط الأفق... ترى على سطحها خطوطاً كثيفة جداً تتقارب وتتباعد وآلاف من الأشكال البشرية تتنقل عليها كما النقاط الفوسفورية تجدها تلمع بشكل مزعج أمام عينيك... شبكة كما حبال السيرك يهوي منها من يهوي ويحاول البعض التوازن بشكل مضحك... المشكلة في تلك الهاوية التي تتساقط بها تلك النقاط أنها ليست سوى كتلة متشابكة من خيوط حياتية مهترئة...

صنعت من مادة اللاجدوى... فقط ليكون السقوط مجدياً... للسباحة في نهر العبث... .شيء يشابه السراب المدرك سلفاً بعقلنا الباطن أنه ليس سوى السراب وأن الحقيقة مازلنا أعجز عن إدراكها... فقط يحق لك أن تتساءل وصدقني أنه سؤال مشروع للغاية... لماذا؟

الوجود... لماذا؟

الألم... لماذا؟

نقطة الخلق الأولى... لماذا؟

ستجد أن كل ما سبق وقيل لك ما هو إلا كذبة كبيرة... لا جواب يرضي توقك لمعرفة لماذا أنت في هذه اللحظة هنا وبهذه الحال وأنك تعيس للغاية ووحيد للغاية لا تملك شيئاً من أمرك ومن وحدتك سوى ظلك فماذا لو كنت مكبلاً؟

ماذا لو كنت عاجزاً فعلاً... مهما حركت يديك وأقدامك واعتقدت بأنك حر...

ساندريللو... صدقني لست وحدك المكبل المعزول... هذا شأننا جميعاً.. الغارقون بوهم الحرية... لا انعتاق... مكبلون بالوهم... مكبلون بالوهن... متعبة أنا أتخبط في معرفة أيه رأس الخيط؟ رأس الحبل طرفه الأول؟ أم طرفه الثاني؟

وماذا عن لعبة شد الحبل؟

لم يعد الموضوع لأي الأطراف الغلبة ستكون.. فالحبل بالأساس مهلهل... وتمزق.. ما عاد هنالك من قضية

صعب أن تزن الأمور بميزان قبضة الوسط فيه مكسورة... نعم لك أن تفهم ماهي قبضة الوسط... ستجدها مرمية تحت الأقدام... تدعس وتدعس حتى تستوي بالأرض.. بل وتدفن بداخلها...

ساندريللو

أعلم أنني أثرثر كثيراً،لكن على الأقل لنفسي فلا حاجة لي لتفقد الجدران.

عزيزي ساندريللو..

اعذرني لتأخري عن مراسلتك، كنت مشغولة جداً في الأيام الماضية، إذ كان علي أن أبحث في تلك الأوراق التي سربتها لي لأصل إلى عنوان تلك العائلة. تذكر بلا ريب طلبك مني أن أبحث وأطمئنك عن "عابد"؟

حسناً ما زلت أحاول الوصول إليه، كان علي أن أسافر إلى تلك القرية والسؤال عن بيت أسرته... المشكلة أن المنطقة كانت جبلية وعرة وأنا لم أعتد السير بهذه المناطق.. كان الحر شديداً وكنت أشعر بمذاق حبات العرق المالحة على شفتي.. هه تصور لشدة تعبي وعدم تركيزي خيل إلي في البدء أن السماء تمطر حبات مطر مملحة.. كنت متعبة جداً وصلت إلى بيت قديم تحيط به حديقة صغيرة توزعت على جوانبها العديد من الصفائح التنك وبعض منها لتنكات النيدو الفارغة أو تلك الأخرى لسمنة أصيل وأفت.. شعبنا البسيط الطيب يحاول زراعة الجمال في أصص لا يرمي بها بعد الاستهلاك وكأنه نوع من التمرد على استهلاك الحياة له. كانت تفوح من المكان رائحة الفل والريحان حنين لا ينتهي ثمة امرأة ترتدي مئزراً تحرك حبات الكرز المغلي بوعاء قد نصبته على نار البابور.. المشهد غريب نوعاً ما لكن بعدم توفر الغاز فهو الحل الوحيد... تقترب مني بابتسامة ترحيب: أحضره للعنبرية ليكون جاهزاً في عيد الميلاد والفصح.. أبتسم لها بمودة بعض العادات الجميلة ببلدي ترافق ذكرياتنا تقليد لا غنى عنه تجده بكل البيوت المسيحية... أذكر قول المسيح

«هذا هو دمي من العهد يسكب للكثيرين لمغفرة الخطايا»

الرسالة السابعة ((7))

عزيزي ساندريللو...

أعتذر لأنني لم أستطيع أن أكمل لك ماحدث معي ببيت السيدة التي أرسلتني إليها ..لم أجد قلماً أكمل به رسالتي إليك، فقد جف حبر قلمي، فرميت به ونهضت أبحث عن قلم جديد. هكذا هي الأمور، دائماً مايوجد حدث أي حدث يعيق ما ابتدأناه... كما شأن الحياة... كان من الصعب البحث عن قلم في هذه العتمة... دون كهرباء وفقط على نور الشمعة... حتى الشمعة كانت تتراقص برقصة الموت والتلاشي... ذهبت إلى المطبخ حيث كنت قد أعددت إنارتي الخاصة التي بات يعتمدها الكثيرون.. كأس صغير ملأته حتى ربعه بحبات العدس وجدلت خيطاً سميكاً غرسته بوسطه جاعلة إياه كفتيل وسكبت بعضاً من الزيت فأصبح عندي شعلة بسيطة... كانت ثمة رائحة احتراق كنت أتحملها على مضض.

مالبثت أن تذكرت قشرة البرتقال التي علمني أحد الجيران كيف أنها تمنح نوراً أكثر حين يشع اللهب بداخلها ناهيك عن رائحتها العطرة... كما أرواحنا... تحترق وهي حاملة لوهجها... نعم أثرثر كثيراً على الورق لأنني أبتلع صوتي بداخلي، تلك الشفاه قطبت بخيط صمتها.

هي العتمة... مازلت أبحث وأتخبط... العدس والنور... تحضرني كلمات كان يرويها لي أحدهم عن معنى رمزي لكلمة عدس بسوريا في الستينيات من القرن الماضي، بالصراعات على الحكم في سورية وفي إحدى المراحل هيمن تحالف الأقليات وهي من العلويين والدروز والاسماعيلين باختصار كانت كلمة عدس هي الرمز لهذا التحالف.. إلا أن الإقصاء كان بداية التهميش للفئتين الدرزية والاسماعيلية لتسود شعبوية نظام البعث الذي انتقل إلى تحالف أكبر استفاد فيه من ضم فئة الفلاحين إليه بعد التأميم الذي كان إبان الوحدة والذي ماكان بحقيقة الأمر إلا للسيطرة على أموال الفئة التي كانت بيدها تقاليد الحكم والأموال لتوزع بشكل ما، بدا بحينه كسباً لفئات أكبر من الشعب تعزيزاً لهدف سياسي.. هل تعلم وكأن الأمر أن تحيط بلوحة من القياس الكبير بإطار ضخم يهيأ إليك في حينه أنك تمسك بها لكن!

لا تلبث المسامير أن تتفكك لتسقط أطراف الإطار واحدة تلو الأخرى كل واحدة بمكان وليتكسر الزجاج الذي وضع لحمايتها وتخدش وتتمزق معه هذه اللوحة... لوحة اجتماعية هيأت لتعرض بمعرض لتكون واجهة لصورة ليست بالحقيقية.. لم تتماسك فما كان هنالك جدية للحفاظ عليها.. الفئات المغلوب على أمرها ازدادت بؤساً واستغلت أكثر فأكثر...

لماذا أتحدث معك عن العدس؟ هل تعلم كم ارتفع سعر العدس الآن... مكلف طعام الفقراء.. نعم مكلف جداً بعد احتكار المزروعات لتصديرها. أتساءل ماذا يطعمونكم في السجون هل يطالكم التقنين أيضاً؟ربما؟

العدس مكلف للغاية كفاكم شراهة لا بد من أن تدعموا الاقتصاد.. شعب واحد، معدة واحدة... محظوظون يا أنتم هو نظام غذائي يحفظ لكم صحتكم... اللحوم ضارة جداً أظنكم تعلمون هذا... أستحضر بذاكرتي

بعض أقوال أحد المسؤولين عن الغذاء... لا لا أريد أن أقول ماكان يهرف به مقرف جداً أن يتحدث الشبعان عن ألم الجائع... آه كيف لو علموا أن ثورة الجياع لا تعرف المهادنة!؟

أطلت عليك الحديث... لا شك أنك تهز الآن برأسك بنفاذ صبر... ثم لا تلبث أن تقول... بكل الأحوال ما من شيء لدي لأقوم به فلأتابع رسالتها...

نعم نحن فقط نتابع ونتابع كل شيء بحياتنا هو الزمن المطاط... حاولنا من قبل أن ننتهج السرعة... فسقطنا مع عقارب الساعة...

الغرفة فارغة والساعة تدور وتدور عقاربها بصمت... نعم بصمت... يقولون تراتبية اهتزازات الصوت تحطم الأعصاب... حسناً ما من صوت... لكن؟!

من قال بأن أعصابنا لم تتحطم؟

الزمن... الامتداد... الحدث...؟

ربما كشعوب نحن متفردون بتميزنا الغريب بالعشوائية... نحب تسلق الأزمنة الهوجاء.. وننـدفع بخيولها للا وجهة.. فقط لنسقط..

الأسرع دائماً في القبول في التأييد في الاعتراض في السقوط... ونحن البطيؤون جداً في الوعي...

الأسرع والأكثر بالانقلابات والانهزامات...

كان من الغريب جداً أننا ربما مافهمنا من عصر السرعة إلا اللامنطق أكان هذا نوع من التميز؟

هل تصدق أن أسرع حكومة بالسقوط كانت الحكومة الثالثة بسوريا استمرت أربع وعشرون ساعة فقط لناظم القدسي إذ قدم استقالته

بعد تشكيل الحكومة الثالثة ولم يمض عليها سوى أربع وعشرين بعد اجتماعه مع الشيشكلي والسلو لتكون هذه أقصر حكومة في تاريخ سوريا الحديث...

نعم هو التشتت... أنت تقول لنفسك هي مشتتة.. هذا طبيعي شأني بهذا شأن الجميع

التشتت بالأفكار أصبح سمة ملازمة لكل فرد فينا.. ربما لتتناسب طرداً مع تشتتنا الداخلي والخارجي.

أذكر لك ما أذكره لأنني كما غيري تعذبني وتخيفني السيناريوهات المكررة الملتحفة دائماً بالغموض.. كل شيء متعب.. لكن كأننا نسبح بالهروب.. نعم نحن نسبح إلى حدود الغرق... تصور أن يكون خلاصنا هو بالغرق. هو تعب الاستماتة في الإيمان بالأفضل.. بالسلام والعدل

أنا وأنت كما غيرنا، وكما الجميع نطالب.. ودون جدوى.. نعم تلك المطالبة ستكون دون جدوى وهذا هو الغرق بعينه.

أن نطالب بأن نعلم... بأن ندرك ما جعلوه التابو الأعظم والعصي على الاقتراب والإدراك

تابو... الحقيقة...

فماذا بعد؟!

الرسالة الثامنة ((8))

عزيزي ساندريللو...

كانت ابتسامتها مزيــج عجيب من الدفء والحزن... لأحدثك قليلاً عنها... تلك السيدة التي أرسلتني إليها "أم عابد"

بادرتني بالتحية وهي تمسح يديها بمنشفة نظيفة، وتسارع لخلع مئزرها الذي وشته بعض نقاط من عصير الكرز الوشنة.. هذا الكرز الذي يعشقه أهل بلادنا كما أسلفت يصنع منه خمر العنبرية المخصص للأعياد المسيحية وفي أريحا ابتكروا نوعاً خاصاً من الطعام هو اللحم بالكرز الذي يستغرب العالم مجرد ذكر اسمه ويستبعدون تجانسه، هو نوع غريب من الكرز الشديد الحموضة مع بعض الحلاوة، المهم ليتك تأتي يوماً إلى بلادي سأدعوك حينها إلى أطيب وجبة تتذوقها بحياتك.

أعود إلى السيدة التي أشارت إلي أن أتبعها إلى ردهة واسعة فرشت بشكل بسيط.. دلفت وراءها لأجدها تقف أمام أيقونة صغيرة للسيدة العذراء وقد أشعلت أمامها سراجاً صغيراً مما جعل نوره ينعكس على اللوحة ذات الإطار الخشبي العتيق وقد ارتصت أمامه أشكالاً فضية صغيرة تمثل أشكالاً لقديسين وملائكة.. سحرت بجو عبقت به أيضاً رائحة البخور وتراقصت فيه الظلال على الجدران... كان هذا التناقض

المتماهي بالحين ذاته ما بين لون الإكليل الذهبي الذي أحاط بإيحاء قدسي بوجه يمثل الطهارة وما بين الأشكال الفضية للنذور المتوضعة على جانب اللوحة صياغة جميلة للتآلف بين عناصر مختلفة، كما مذاق الحموضة والحلاوة للكرز ذاته، كما نحن السوريون يعانقنا تآلفنا الإنساني بود.. لا أحب قول الموزاييك المتشابك كلوحة تمثلنا... أمقت تكرار الجمل ذاتها لا أعلم لمَ يستمرون بترديدها.. موزاييك... شفافية.. مصداقية.. وهلمّ جراً كلمات يرددها الإعلام يتوارثها الإعلاميون والمسؤولون... و و و.

عزيزي ساندريللو حين تقف أمام لمعان اللون الذهبي والخفوت الخجول للون النذور الفضية... ربما يتبادر إلى خاطرك كما يحصل معي... العشرون ليرة فضية ويهوذا... تتبادر إليك الخيانة.. التي لطالما كنا مسرحها.

تأخذ شمعة صغيرة وتقوم بإشعالها تسألني إن كنت أود هذا أنا أيضاً أومئ إليها برأسي... تأخذ بتمتمة غير مفهومة لكن تنوب عنها دموعها بالتفسير.

- فنجان قهوة؟

_ نعم أرجوك فقد أتعبني الطريق.

- من الجيد أننا كنا نشتري حبات القهوة غير مطحونة ونحمصها نحن بمحمصتنا اليدوية الصغيرة.. أبو عابد مازال محتفظاً بها منذ أن ورثها من والدته.. هو تقليد عندنا البن المحمص له طقس خاص به.

كانت تتحدث بسرعة محاولة إخفاء توترها وحزنها..

آه لو أنك رأيت طيبتها، صدقني أحسست بوطأة مهمتي لكنها كانت متفهمة. دعتني للصعود معها إلى السطح حيث توزعت صواني دبس البندورة المعصورة.

- أقوم بهذا الآن لأحصل على مصروف البيت من خلال بيعها.

ساندريللو أرسلتني إلى حيث القيظ وارتباك السؤال، كنت أشعر بلسعة الشمس القوية تكاد تحرق رأسي، لكنني كنت قد وعدتك.

مضت المرأة إلى خزانة خشبية قديمة متهالكة وأخرجت منها عدة طناجر نحاسية هالني كبرها.

كانت المرأة تلتفت إلي وتتابع حديثها:

كنا أسرة كبيرة نتجمع معا بذات الدار أنت ترين حجم القدور؛ أومأت إليّ بأن أساعدها اقتربتُ منها وسحبتُ معها صندوقاً خشبياً صغيراً كان قد حُشرَ بين أكوام الأطباق البلاستيكية القديمة وجرات بنية من الفخار.

مدت يدها إليّ به، وأشارت إليّ بفتحه قائلةً:

كان قد أوصاني بهذا، "بأن أعطيه لكِ".

فتحت الصندوق الصغير بسرعة وسرعان ما أطبقته. ثمة أوراق مهترئة خشيت من أن تتمزق بيدي سأرسلها لك قريباً.

كانت الشمس حادة لكن لم تكن هي وحدها السبب في إطباق عيني وأنا أنزل الدرجات المؤدية إلى حديقة البيت متلمسة طريقي بأصابعي على الدرابزون.

هل الدرابزون كلمة تركية الأصل؟ لا أعلم...

أثرثر كثيرا أعلم هذا لكن هذه الثرثرة متنفساً أنا وأنت، ثرثرة بلا صدى.

تريد الصراخ؟ اصرخ ما شئت فقد بات المدى أوسع

ساندريللو هم يجيدون الحياكة صدقني، يخيطون أطراف الجفون، زواياها بدقة شديدة بل ويسمرون الرؤوس أيضاً..

إياك والبحث عن البوصلة... البوصلة هي من اختياراتهم، اتجاه واحد عليك أن تبصره، أن تتبعه... فأنت مقسر.

وإياك ثم إياك أن تبحث عن الزمن... فقد سبق لي وأن رددتها لك "الزمن ستدركه لاحقاً".

والخارطة ورقة صفراء لوثتها أياديهم.. بزمن ما وبزمن ماضي وزمن حاضر وزمن نمضي إليه..

خارطة خربشتها عقارب الساعة... منذ ذاك الأمد

ربما إن كانت بينك يديك عليك حينها أن ترفعها وأقصد تلك الخارطة... ارفعها لتدرك كل شيء. فقط انزع عنها مسمار المحور وانظر ما كان تحتها... ستدرك الكثير وستفهم... الزمن وأشياء أخرى.

لا تأبه لباندول ساقط.

فقط عند اكتمال الخارطة لك أن تدرك... وأن تعي دور الزمن في لعبة الزمن.

الرسالة التاسعة ((9))

عزيزي ساندريللو

أريدك أن تطمئن تماماً إذ استطعت الحظي بما طلبته مني، فالصندوق الخشبي الصغير معي. عدت منذ قليل إلى غرفتي التي استأجرتها بوسط حي شعبي من قرية صغيرة، تضحك إذ أقول لك حي شعبي في قرية وكأن القرية باتت تخضع لقانون التنظيم ذاته في المدن؟ نعم هو كذلك، إذ باتت القرى أيضاً مصنف أهلها حسب الفروقات الاجتماعية والمادية، فالمسؤولون من ذوي الأصول الريفية باتوا يتناطحون في التنابز على المباهاة بفيلاتهم الفخمة في قراهم، سمّه ما شئت؛ تعويض نقص ربما! أو نوع من الاستعلاء والذي هو انسلاخ بحد ذاته من خلال حواجز استعلائية شأنها بهذا شأن الحواجز البشرية المتوضعة أمام بيوتهم، تلك الحواجز تحت مسمى (بادي غاردات) حواجز بشرية متباهية هي أيضاً، وكأنهم بعد حظوهم على مهمة حارس أو تابع أو.. لا أريد تسميتهم تلك التسمية الأخرى، ألم أقل لك أنني لا أحب التكرار وشيوع الألفاظ والمسميات؟ حسناً هؤلاء بعد تشريفهم بمهمة كلاب حراسة باتوا أسياداً هم أيضاً، في غياب أسيادهم.

ألا يقولون كلب السيد سيد؟

باتت مهمتهم التطاول على أقرانهم وذويهم بل وكل أهل القرية بقرارات شخصية منهم فهم أهل الحل والربط ولا نعلم إن كان هذا يرضي أسيادهم أم لا. ربما البعض من هؤلاء السادة لا يحبذ هذا حتى لا تنهار صورة أصحاب الخير، الخير المذل الذي يصورونه عمداً وهم يوزعون المساعدات بعنجهية مزعجة. وربما وهذا ما نأمله أن البعض منهم صوت عدل وحق ومشرف فعلاً في مكانه لكنه أعجز ما يكون عن ممارسة إيجابيته.

عزيزي ساندريللو..

أتخيلك تهز برأسك بأسف، معك حق لكن؛ أليس ما أقوله هو الحقيقة؟ لماذا نتغافل إذاً عنها؟ لا خلاص صدقني، لا خلاص إلا حين يتم مفهوم المساواة والعدل... لا لست أتحدث هنا عن الشيوعية أو عن اشتراكية مزيفة كانت بدايتها فقط طعماً لبناء قاعدة جماهيرية كبيرة؟ قاعدة شعبوية لم تُبنى إلا على رمال تطفو على مياه آسنة مما قادها للتخبط والغرق... ابحث عن الأساس.

هل يستوي بناء على أعمدة متفاوتة البنيان؟ ألم تسمع بمقاومة المواد؟ ألانحتاج إلى التأكد من إيديولوجية سليمة ومناسبة للعمل بها؟

مخيف جداً ما بتنا فيه من تفاوت اجتماعي بنيوي.

هذه هي الحقيقة وهي سبب كل شيء.. نقطة الأساس للبناء بدءاً من كل شيء هي الإنسان.. وصولاً إلى تقييد الأمور لضبطها بشكل عقلاني لوجيستي حيث لا تبقى ثغرات اقتصادية بالحياة الاجتماعية وهذا يساعد حتماً على إلغاء الحقد الطبقي.

ساندريللو ألست معي بأن التغافل عن الواقع هو خلل بحد ذاته؟

أصعب الحقيقة أن لا نلبسها رداءها... كما نحب

الحقيقة عارية... وبهذا جمالها

إشعاعها ينفذ في مسام كل الأشياء.

مازال للبوابات من ينتظرها أن تفتح.. نعم فالاختناق الآن هو السائد.

ثمة نور من بعيد وغلالة رقيقة تغشي بصيرتي.. يقولون إنه الأمل أتعتقد هذا؟ هل تؤمن به فعلاً؟ ربما أخطؤوا بترتيب الحروف... ربما هو ألم نعم هو الألم بلا شك.

لكنه يبقى كفكرة مجردة باسم رديف هو "الانتظار".

شيء ما بداخلي يجعلني لا أسلم... شيء كما الحنق،كما الغضب.. كما صرخة أبكم تخرش الحنجرة.

ماذا نفعل عزيزي؟

جعلوا منها لعبة.. السيادة.. المسؤولية.. الوطن.

ساندريللو نحن الآن ببساطة تامة في عالم العبث المهلك.. تحت اسم الضغط الدولي... كتم للأنفاس إلى أبعد حد.

شيء أقرب ما يكون إلى لزوجة الرمال المتحركة... لا خلاص. اعتبره ما شئت إلا أن كل هذه الاعتبارات تصب في خانة واحدة "اللاجدوى"

كما عبثية انتظار جودو... ربما كانت المشكلة تكمن في الثبات أو المراوحة بالمواقف ذاتها... ترى هل ذهب أحدهم يوماً للبحث عن "غودو"؟

الخمول... هو الخمول في التسليم والتوكل والتواكل..

انتفاضة فكر وصحوة ضمير وفهم حقيقي لمعنى التآخي والتعايش والإنسانية ربما هذا ما كان علينا به.

بنتيجة الأمر ليس هناك سوى كوليزيوم عالمي يتحلق حوله تلك الكائنات التي اسمها بشر لحضور مسرحية من العيار الثقيل حين تكون اللعبة الذكية بأيد غبية... لك أن تحجز مقعداً لحضور كوميديا سوداء..

المشكلة يا ساندريللو أن الحضور مع هذا جالسون بشكل معاكس ويصفقون.

العتمة مريعة وخانقة ساندريللو...

عتمة بالأمكنة وعتمة بالعقول وبالأرواح أيضاً.

أبحث عن شمعة لا ألبث أن أخبط بيدي على الطاولة بعد أن اصطدمت بها...

أضحك، حين نتأذى، ننهال بالغضب على الأشياء... كما بالعنف كما بثورات الغضب.. كم وكم عانى الحجر وعانت الأمكنة من الأذى.. نؤذي أنفسنا دون تفكير... أمسكت بيدي أحاول إخراج قطعة من الشوك غاصت بها... الأشواك؟

حسناً هي شوكة من ذات الشيء الذي استندت عليه... الفكرة مؤلمة حين تأخذها برمزيتها... ألست معي في هذا؟

تضمين المعنى.. قد يكون جبناً أو خوفاً أو سمّه ما شئت... مارأيك إن كان تحدياً ذكياً؟ أعني لا يكون خوفاً أو جبناً.

ساندريللو... تعبت من العتمة... تعبنا كلنا منها، يقال إنهم يصدرون النور إلى ما يجاورنا... حسناً من الجيد أن نكون سبباً للنور ولكن بالتالي لا يكونوا سبباً لعتمتنا.

لأعد إلى الشمعة... هل تعلم أنهم يعطرون الشموع في البلاد الأخرى؟

لا عطر لدينا فشموعهم تكتم أنفاسنا، رائحة الزناخة لن تعطر الأجواء أو الأحداث.

حسناً أقول نور وتنوير... وتقول إنك تريد أن تشعل شمعة حب بدلاً من أن تلعن لون الظلمة..

تقول وتقول... أقول وأقول...

تقول هذا لجدران سجنك وأقول هذا لجدران روحي.. ثرثرة في أردهة الصمت ولا مجيب.

أتريد أن تشعل شموعك في الشمس؟

أما فهمتها بعد تلك الحياة؟

أما فهمتها بعد؟ بالله عليك اصمت.

لا تتضايق مني أرجوك... ليس طلبي منك بالصمت تعنتاً مني.. بل ألماً هو الألم صرختي... وضميري.

ساندريللو... نحيا عذاباتنا وتناقضاتنا، أعلم هذا، كما أنت، كما الجميع.

فنحن كما أطلق أنا على شعبنا هذا الاسم المؤلم، نحن غجر القرن الحادي والعشرين، التائهون بلا قرار... فالقرارات قراراتهم... القرار أرجحة مابين ردهات المفاوضات والمعاهدات وإلى ماغيرها.

ساندريللو الكل مترنح... نحن بألمنا وهم بسكرهم وعربدتهم... لا تستغرب إن ترنحت اللحظة قبل القرار.

الرسالة العاشرة ((10))

عزيزي ساندريللو :

تأخرت في الكتابة... كنت أحتاج إلى نظاراتي المقربة.. لا أستطيع الرؤية مع هذه العتمة الفظيعة... تعلم جيداً أننا نعاني من انقطاع الكهرباء وليس الأمر متوقف على الكهرباء فقط، بل هو أبعد من ذلك بكثير.. انقطاع عن الماء، عن الغذاء، عن الدواء، عن الأمل، عن الحياة. ربما كان العجز الأكبر هو ذاك الانقطاع عن الوعي... ربما حسب البعض أن الحصول على شعلته أمر صعب للغاية، وأنه من الصعوبة بحيث أنه يحتاج سفراً عبر الماضي أو التوجه غرباً عبر المستقبل. وطبيعي لخمولنا المستدام... أن نؤجل السعي إليه..

عزيزي تعبنا من التواءات تصيب أعناقنا ونحن نحاول فهم تاريخنا وماضينا، لنتشدق به... حتى كأننا نسينا الاتجاهات وغفلنا عن أنه توجد كلمة اسمها أمام؟ أو لم ننتبه إلى كلمة حاضر. ربما كلمة حاضر ما فهمنا منها إلا المكوث والجلوس والقبوع... أذكر درس الفتوة في المرحلة الثانوية أعني درس التربية العسكرية... وجملة مكانك راوح.. ربما تبنينا لا شعورياً تلك المراوحة بالمكان... الإيعاز والأمر ونفذ ثم اعترض... هو نوع من المقاربة فقط... كحالة تشبيهية لما نحن فيه ولن أقول عليه لأن استخدام أحرف الجر بعضه غير مجاز لنا.

ثمة فرق كبير بين (على) و(في)... فنحن (في)، هو الانضواء رغماً عنا حتى ولو أن التعبير كان المعنى ذاته بين ما نحن فيه وما نحن عليه... لكن؟ لمن يفهمها حقيقة ويحاول الغوص بها بدراية سيفهم الفرق.

ساندريللو

كنت أبحث عن نظاراتي بخوف ونزق، أحتاجها وإن فقدتها لن أستطيع الحصول على غيرها، الأسواق مغلقة والحواجز تقطع الطرقات ناهيك عن خطورة التنقل تحت وابل الرصاص والخطر من الإصابة بأي من أنواع القصف، لا نعلم أي الجهات نحذر.. المهم أننا دائماً نحن أفراد الشعب المسكين في وسط المعمعة وكل من الطرفين يريد أن يربي الآخر بالآخر... طرفي الحبل والعقدة لنتساءل هل من عقدة في الوسط؟ المهم أن الوضع بات كطرفي مقص غير مثلوم تحاول جز عنق الضحية... لك أن تتخيل الألم.

ساندريللو... أين نظاراتي يا ساندريللو؟ أووف... أحتاجها.. أتعلم شيئاً كلما أضعت نظاراتي يحضرني مشهد إعدام عمر المختار ونظاراته التي يلتقطها الطفل الصغير... آه كم كان رائعاً هذا المشهد أدّاه بروعة أنطوني كوين وما أعجبني أكثر هو أوليفر ريد كان أكثر من رائع ذلك التعبير الذي رسمه على وجهه الصلب الملامح... لنعد إلى موضوع المشهد والمعنى ككل.. مفتاح المشهد كان رمزياً للغاية.. النظارات... بصر وبصيرة وتبصر.

لنتساءل معاً؛ أنبصر أم نبصر أم نتبصر؟

وكأن هذا المشهد حمل الفيلم كلّهُ أحياناً نقرأ كتاباً كاملاً، لتبقى جملة واحدة هي ميزانه وتخلد بذاكرتنا. تكون هي القيمة الفعلية والخلاصة التي نريدها ..

ساندريللو.. أذكر أنك كنت تشكو من ألم عينيك وكنت قد ذكرت لي خوفك من مرض السكر لديك... اعلم أنك ببؤسك هذا بخير بالنسبة لعينيك، ربما نسيت طعم السكر مع حرمانك منه وما تتذوقه من مرار..!!كانت يد الطفل التي امتدت إلى نظارات عمر المختار هي الوعي المأمول من الأجيال القادمة... هي التنوّر والبصيرة لكن كان هذا حلماً ساذجاً... قد غصنا بحماقاتنا عزيزي... استبدل شباننا وعيهم بتربصهم بكل ماهو تافه من الاهتمامات، هل خطر ببال مصطفى العقاد يوماً أن الأجيال القادمة لن تأبه سوى بالتيك توك؟ وبرونالدو وميسي؟

ساندريللو... هل لاحظت كم نتساءل؟ هل لاحظت معي كم إشارة استفهام تتساقط على كلماتي؟ المضحك أنني مازلت أكررها إشارة الاستفهام هذه، بل كثيراً ما أضعها مع إشارات التعجب... نعم بدأت أنتبه على نفسي بهذا

لماذا برأيك؟ بالله عليك؟ أعلم أنني أكرر بسماجة تساؤلاتي، لكن ألا يستدعي هذا فعلاً تساؤلنا؟

ساندريللو نحن قابعون ببئر عميق، محتشدون بصورة غير معقولة وحبل خلاصنا مسنن بإشارات الاستفهام المشبوكة معه بكل جزء منه... بالله عليك كيف لنا أن نمسك بحبل من إشارات الاستفهام؟ ستجرح أيدينا بل وستتسلخ أيضاً.

لكن لا مناص لنا من هذا، فالبئر عميق وقاتم وحبلنا كما أسلفت لك... علينا أن نفهم حتى نخرج.

ربما صار لكل واحد منا سبحة طويلة بدلاً من حباتها إشارات استفهام يتقلدها حول عنقه... إلا أنها تضغط عليه وتغرس بجلده وبأنفاسه... ولا خلاص...

قد تكون فانتازيا الرؤية، لكن الواقع الذي نعيشه هو الآخر نوع من الفانتازيا البائسة.

نتساءل كثيراً؛ ونستغرب أيضاً... نستغرب كثيراً... فنستخدم إشارات التعجب... لكن لم يعد هذا كما كان من قبل... وإن كانت هاتان الإشارتان، أقصد الاستفهام والتعجب هما أكثر ما يوجد في قاموسنا الحياتي اليومي..

ساندريللو... بنهاية الأمر نحن شعب مثير للجدل... نتساءل ونصم آذاننا عن سماع الجواب.

وكأننا نختار الهامش دائماً. أتدري ساندريللو أن الوقوف وراء الهامش متعب؟ وكذلك الخروج منه.

هو الحزن مانحن فيه ساندريللو.. نعم هو الحزن

هو التواري مرغمين، وقد يكون الاختفاء أيضاً.

إلا أنه بعيداً عن الحزن، عن الابتعاد، عن التواري وبعد الكثير من التساؤل، تمضي الحياة... صدقني بالنسبة لهم هي تمضي.

لا تسألني كيف... هي تمضي.. فقط تمضي لأنها الحياة... ولأنها أيضاً... باتت تشبه الموت.

ساندريللو حزينة أنا... وأكتفي بهذا.

وجدت نظاراتي... وبدأت أغلف الصندوق الخشبي الذي طلبته مني وغداً سأحرص على الاتصال بحسام لأطمئن على أخباره وأبلغه بما طلبته مني..

رائحة الكاز الأزرق كادت أن تخنقني اليوم لا أعلم من اخترع هذه الوسيلة الغريبة قديماً حتى بتُّ أستخدمها لغلي قهوتي... لكن ما من حل آخر فلا غاز ولا كهرباء وأحتاج للقهوة بشدة... سأعود للكتابة بعد قليل.

الرسالة الحادية عشر ((11))

عزيزي ساندريللو .. لم تصلني أي أخبار من قبلك... قلقة أنا للغاية.

أدعك جبهتي بضيق فالصداع لا يكاد يفارقني مازلت على الطريقة ذاتها في إعداد القهوة على ذاك الاختراع الذي كانت تسميه جدتي "السبيرتاية" أضحك الآن.. من كان يتخيل أننا نعود إلى الوراء.. رائحة الكاز الأزرق تنقلني إلى عقود مضت.. تداعيات أفكارنا، الماضي الجميل، السلام، الوجوه الطيبة النابضة بالمحبة.

تباً لهذه "السبيرتاية" لم تستطيع دلة القهوة أن تحافظ على توازنها فهوت وانسكب الماء على أوراقي المبعثرة.. عليَّ أن أجففها الآن، ولا أعلم كيف... رحم الله أيام السيشوار والمراوح الكهربائية، لكنت استطعت أن أجفف أي شيء بسهولة.

أسمع من بعيد أصوات القذائف، بعضها من القوة بحيث ترتج لها جدران البيت.

ساندريللو... أعدت الآن أوراقي وطاولتي كما كانت قبل ساعات.. استطعت تجفيفها بصعوبة... لم تكن الأوراق وحدها المبتلة، بل عيوني ووجهي أيضاً... مجرد تخيل ما يحدث هو الشراسة بحد ذاتها

والآن هو السكون، هو التساؤل، هو الخوف..

سكون له ضجيج خانق يشتت الروح...

ساندريللو؛ حين يزداد ركام الحجارة والدمار تختنق كلماتي تحت رماد الإنسانية

كل صوت لقصف له لون، لون السواد لون الاحتراق، له لون الجمر، لون الدماء، لون الرماد، لون انطفاء أرواحنا.

ألا تباً لكل شيء، أرتجف من صقيع لا مبالاتهم.

ساندريللو الدخان الآن بكل مكان، أحاول معرفة أين القصف أو من أين يأتي، يأتيني الجواب.. بشكل شبكة متضاربة من الأصوات من كل مكان ومن لمعان وهج النيران والتفجيرات بالسماء.

الدخان... عدو عابث يشوش الرؤيا كما الخديعة، تراه الآن في كل مكان، أخطبوط ضبابي غريب، يمتد من الماضي إلى الحاضر يقتحم المستقبل بضراوة بل يسبقه رغم فانتزيا فكرة سبقه للزمن... هو الغول المترصد المستقبل للمستقبل بحيث يلحقه بصورة عجائبية بالماضي، التدهور والانجراف إلى هاوية الجنون .

ساندريللو هو الجنون بعينه نعم لعبة زمنية خبيثة تشدنا بحبال مطاطية إلى الخلف حتى نؤول إلى مايشبه الاندثار...

تلاطمني الجدران وأنا أبحث عن علبة ثقاب.

غريب هذا العالم... النيران هناك.. وأحتاج هنا عود ثقاب.. مفارقات قاسية.. ألعن النار هناك وأحتاجها هنا... نسبية الحاجة... هنا الحاجة إليه حاجة ماسة. فماذا عن هناك؟ هل يحتاج الأمر فعلاً تلك الحرائق الهائلة...

ساندريللو للحظة تداخلت الأمور بعضها بعضاً في ذاكرتي...

شرقنا العربي بترول العرب للعرب... خط باراليف... سقوط بغداد... تظاهرات رابعة... حصار غزة.. حرب الصحراء.. تداخلات زمنية لا تنتهي... شيء ما يجثم على صدورنا نحن سكان الشرق الأوسط... أطماعهم وسذاجتنا، خياناتهم... وضعفنا.

مازلت في بيت الجدة أحاول أن أجد بين صناديقها المتراكمة مصباحاً صغيراً يعمل على البطارية كنت أعلم أنها تحتفظ به دائماً هنا.. هل تُراها كانت تتنبأ بما سيكون عليه الوضع بعد سنوات من رحيلها؟!

ساندريللو... لن تصدق ما وجدته بين هذه الصناديق تصور ثمة عدة علب لأعواد الثقاب... يالقدمها! كبريت المدفع.. تذكرت مسرحية كان يعرضها التلفاز أيام الأبيض والأسود مسرحية كوميدية لمحمود جبر تردد بها عدة مرات اسم كبريت المدفع يا لذاكرة الطفل.. كم تختزن من الفرح والضحكات كنت أضحك كثيراً لمواقف المسرحية... كان هو الزمن البسيط.. الزمن الذي لم يكن المواطن يستشعر فيه أن ثمة عقود كارثية آتية بلا ريب، عقوداً ستكون وبالاً على الشرق كله.. وبديهي أن ما أعنيه ممتد على طول ساحة الوطن العربي ذاك الوطن الذي تطالب به اسرائيل من الفرات إلى النيل، هو ذاته الذي تغنينا به وأنشدنا له بلاد العرب أوطاني وبلادي بلادي...

أكاذبون كنا، أمخادعون بتنا؟ أم أنها كانت أجيالاً صادقة بحين ذاك الزمن؟

بالأحمر كفناه، بالأخضر كفناه؟

صدقني ساندريللو رموا بهم بالحفر دون كفن... شهداء بلادنا... موتى بلا أكفان... بلا قبور.

ساندريللو يدي خاوية... إلا من عود ثقاب بلهب مرتجف.. أشعل شمعة وأبتهل أن لا تنطفئ بسرعة...

ساندريللو يدي خاوية.. ما من أمل.. ما من يد تمسك بها، تغيرت النفوس ما عاد الناس كما عهدناهم... بات التخوين سمتهم، اقتلعوا المحبة وزرعوا الشك في القلوب والنوايا، أصبح الكل خائفاً، حتى من تهم باطلة، الحقد بات البديل... أين نحن ماضون؟

قد نحتاج يداً تمسك بيدنا لكن لأيديهم أشواكاً.

قد تصرخ، قد تحتاج لأن تصرخ، لكنهم فقط يصغون بلغتهم هم.

مازالت خيوط الخوف تغزل في مصانعهم، الطلب عليها كثير جداً؛ هو سوق العرض والطلب... برأيهم الوضع الحالي يستدعي هذا : «الشفاه يجب أن تقطب».

أفكر..

الآخرون.. أتدري؟ شفيفة كانت شفاههم، مازلت أراها بقلبي، شفاه شفيفة تكاد ترى حبال الحقيقة خلفها تتدافع حروفاً.كلمات وكثيراً من الخوف.

ساندريللو... افتح الستارة ساندريللو... افتحها... فالعتمة مضنية.

هو قانون اللعبة الآن عزل الصوت عن الصدى. لكن !؟

صوت الحقيقة يرتفع أكثر فأكثر. أشعر بأنفاسي تضيق أكثر فأكثر، هو الربو وما العمل والهواء ملوث بشكل دائم، يكاد السعال أن يمزق صدري.. لكن لن أستطيع الخروج الآن إلى بيتي مع هذه العتمة وأصوات القصف... أمضي إلى صندوق آخر في زاوية الغرفة لن تصدق ما وجدته؟ تصور مجموعة مراوح يدوية من القش بمسكات يد خشبية.. آه ساندريللو لو تعلم كم أضحك الآن بجذل... مراوح جدتي وبينها أكياس صغيرة من النايلون بداخلها قطع صابون غار مطيب

برائحة الدريرة... وحناجير عطور شرقية... هذا كنز يا ساندريللو هو كنز فعلاً.. الماضي بين يدي وما أحيلاه من ماضي... الأشياء المغرقة في القديم لها سمة "الأنتيك" هذا إن كنا نتحدث بلغة البورجوازية الصارخة... يا إلهي كم يضحكني الذين كانوا يتهافتون لشراء قطع تحف الأنتيك من عندي... ببساطة يريدون شراء تاريخ ليس لهم ربما لإضفاء صفة العراقة والإصالة إلى تاريخهم وبيوتهم... زيف مفضوح الآن وبعد فترة ستنشط هذه التجارة بكثرة نتيجة لصعود طبقة جديدة من أثرياء الحرب، هذه الطبقة التي ستتربع مكاناً يتيح لها ممارسة تخلفها واستغلالها... ماذا ننتظر ممن يقتاتون على استغلال الغير؟ هذه الشريحة المقبلة ستكون جاهزة لنهش ما تبقى لتدعيم مركزها السياسي مستقبلاً، كما شأن كل من يصل إلى أعلى مراكز القوة فتصبح السياسة مطمعه وملعبه... سيكتمل طقم المنتفعين ساندريللو؛ يوجد دائماً مكاناً فارغاً لمن يدفع أكثر... في عصر الانتخابات... عصر شراء البطاقات من السوق السوداء.. عصر السياسة، عصر أصبح مقروءاً دون فتح الكتاب، تكفي العودة إلى التاريخ كمدرسة معرفية بها التلقين الأولي لدروس الحياة، لكننا نتجاهلها بكل أسف، ربما لا يهتم الكثيرون بالاطلاع على دفاتر الزمن المهترئة، ربما.. لكننا يقيناً نحتاجها. لم ولن تكن السياسة لعبة شريفة فما هي إلا عهر بما فيه من إباحيات التلاعب، سيرك يجيد لاعبوه التنقل بين الحبال ويوجد دائماً حبل احتياط، يكون كما ضمادة تحيط بالأعين لتخفي الحقيقة

الحقيقة مؤلمة عزيزي، لكن بعض الألم ينعش العقل أكثر.

أمد يدي إلى مروحة القش تبدو أنها صينية الصنع، تصور منذ أربعينيات القرن الماضي والصين تصنع وتصدر كل شيء، شعب رائع يجيد التجارة ويتضافر مع الحياة، حتى وإن كانت الكثير من صادراتها إلينا في ذلك الحين يعتمد على التصنيع اليدوي، لكن كان كل ما تعمل عليه يفيدها في تعزيز قوتها الاقتصادية... وبالتالي تفعيل القدرة الإيجابية للمرأة، حتى الأقمشة القطنية المصنعة، كانت تطرز بأيدٍ

نسائية ماهرة.. شعب نشيط... هل تذكر أغطية الوسائد المطرزة حتى بالعربية حاملة معها جملة صباح الخير، في البداية كان تطريزاً يدوياً ومن ثم طور إلى تطريز بآلات المصانع.. أذكر أن سوريا كانت تستورد أيضاً من مصر الشقيقة نسيج القطن المسمى باللينو المصري، كنت أسمع أحاديث الجدات عن شراشف اللينو وأيضاً مديحهن للكتّان المصري.. وحسرتهن على التأميم الذي أصاب معاملنا أيام الوحدة، كان يتردد بكثرة على مسمعي اسم معامل الططري والحريري وصائم الدهر.. ألتقط من الذاكرة الآن كلمة معمل الريجي والتبغ... فتأخذ بي رائحة تنباك السجائر الذي كانت تقوم بلفه في سجائرها الجدة الكبيرة أقصد أم جدتي وكانت تطلب مني أن أجلب لها من غرفتها أوراق اللف الهشة، أذكر أنني أحببت ملمسها وشفافيتها فاختطفت منها ورقة وانزويت بركن وأخذت برسم زهرة صغيرة، كنت أرسمها خماسية الشكل كما بالشكل ذاته الذي كانت تشتغل عليه بالتطريز أخت الجدة، عمة والدتي... فالأزهار كانت بذاكرتي الطفلة لها هذا الشكل.

ساندريللو أضحك الآن بشدة وأنا أذكر كيف ضبطتني الجدة الكبيرة وأنا أختلس من أوراق لفافاتها...

الرسالة الثانية عشر ((12))

عزيزي ساندريللو... أحب أن أستحضر كامل صحوي وأنا معك، يقظة كاملة للأدرينالين هي ما أحتاجه لأستدعي من جديد طاقتي على التذكر، رغم أن التداعيات تنساب بروحي دون دعوة... لكن هذه التلافيف السنجابية في دماغي أكاد أراها بداخلي وكأنها في حالة رقص محموم تضيق وتضيق ولا تلبث أن تتعانق ممراتها كما لو برقصة سالسا مجنونة... شيء ما يجعلني أرى ذاتي كذرة صغيرة تغوص داخل ذاتها وتدور مع جزيئات هذا الدماغ وكأنني داخل عملاق كوني عجيب يحيط بعالم كامل من الغرابة، وصوت متماه مع دقات لنبضات متسرعة في قلبي... أعتقد أنه الضغط المرتفع الآن ساندريللو.. ربما أنا مريضة .. نعم هو شيء من هذا رغم عنادي.. أشعر الآن بجدران الغرفة تدور بي لكنني مصممة على الكتابة.. أمسك بمروحة القش أقربها من وجهي، آخذ بملاحظة خطوطها المتداخلة بتناغم... أتأمل جزأها الملتف على المقبض الخشبي... حتى هذا القش الضعيف بحاجة إلى ما يستند إليه... استناد، التفاف، تماسك ..هي ربما علاقة الجزء بالجزء لصياغة شبه التكامل... كما في الحالات الإنسانية، بدءاً من الشخص ومن ثم العائلة فالمجتمع فكيان الدولة فالأمة.

ساندريللو ما من قوة دون مساندة بتآلف وتضافر.كمافي الدول القوية الناجحة تحتاج إلى تكامل جهاز الدولة مع الشعب تحتاج إلى إيمان الشعب والتفافه حولها وإلا تهوي كما مقبض هذه المروحة إن تفككت خيوطها من حوله... سيهوي وسيكون مجرد عصا خشبية..

ساندريللو لن يفهمها الغير... فالعصا التي أقصدها لا يفهمونها إلا بمفهوم العصا لمن عصى... عصا القوة والترهيب والسيادة، عصا روميل ربما، أو عصا الهش لقطعان المأمأة.

أو ربما العصا والجزرة..؟ فصاحب الحاجة أرعن... وحدث عن الجوع والضعف بلا حرج.

ساندريللو... أعتقد أن العصا البيضاء هي ما يحتاجها الكثيرون... في زمن التعامي عن الحقيقة... لك اعتباره الزمن الأعمى ..

قلت لك أن حالات التداعي تتوالى بلا هوادة ..وتتداخل أيضاً حتى بالكلمة ذاتها تداعي الجسد وتداعي الأفكار.. أعود من جديد إلى مروحتنا العزيزة... أجدني طفلة تنظر بانشداه إليها فتغزوني أصوات آتية من بعيد... بيت الجدة، هو يوم القبول، يوم الثلاثاء، تقليد اجتماعي حلبي حيث تجتمع فيه السيدات وتكون مناسبة جميلة للغناء وارتجال أبيات الشعر والأغاني، في ذاك العهد كان للطرب الحلبي شأنه الكبير، وما من بيت يخلو من آلة العود أو الدف والدربكة، أكاد أسمع صوت ضحكات ضيفاتها وصوت العود الحنون، هذا الصندوق المصوت الذي يحمل زفرات الروح ويحاكي اختلاجاتها في فرحها وحزنها... ربما يجب أن نشكر هذه الآلات الموسيقية البواحة بما في داخلنا هي العكس مننا نشابهها بالصندقة والتحدب والتقوقع على ذاتنا بأسرارنا، لكنها تخرج باطنها بجرأة وتحدي. تتداخل مع صوت العود أصوات النسوة اللاتي تلوحن بأياديهن بمراوحهن القشية، أو مراوح الريش، بعضها استعراضي للغاية، أذكر الآن صوت رنين أساورهن مع تحريك أيديهن، ما من امرأة حلبية إلا وكان من ضمن مصاغها أساور المبرومة والزردة وإسوارة الليرات وتلك الأخرى التي تحمل في أطرافها أشكالاً لطيارة ونجمة وحتى بابور، لا أعلم ماذا كان يخطر ببال الصاغة حينها ليصيغوا هذه الأشكال المضحكة، وطبعاً تبعاً للحالات الاجتماعية والاقتصادية للزوج كان عدد الأساور يزداد ويزداد.

ساندريللو بدأت أشعر بالعطش وأنا أذكر كؤوس شراب البرتقال مع قطع الثلج المبروش إذ تطوف الآن بذاكرتي، هذا الطقس الجميل الذي لا يخلو من بيت مع الصحن التقليدي للأرز بالحليب المبطن ببالوظة البرتقال.

لا تضحك، لست أذكر هذا الآن من قبيل الشراهة، بل هو الحنين يا ساندريللو.

ساندريللو آسفة إذ أجعلك الآن أنت أيضاً تداعب ذاكرتك حيث بيتك وأهلك ويقيناً هو الحنين لطبخ أمك. تباً لكل شيء ساندريللو، يوجد دائماً ما يغيب أو ما نقسر على افتقاده.

ما نذكره الآن سواء أكان كبيراً أو صغيراً هو تاريـخ نعم هو تاريخنا الفردي والاجتماعي والوطني لكنهم يخشونه، يخشون تعلقنا بتاريخنا. فيحاولون محيه وتشويهه.

كأن بعض كتب التاريـخ لها أوراق ملتصقة؟ أو ربما كانت صفراء بما فيه الكفاية، كما الدهاء كما الخيانة... أبحث عن تاريخ الشرق كم من أسرار وكم من خيانات باتت الآن أكثر وضوحاً وتطوراً.

ساندريللو هل تسمع معي أنين التاريـخ؟ أم تراه أنين الحاضر أكثر وضوحاً؟

هو الصراخ ساندريللو، نعم هو الصراخ الذي بات نشجاً وعويلاً دون صدى. ما من أحد يصغي، بل ما كان لهم أن ينصتوا، يكفيهم أنهم كانوا لعميهم ينصتون، لأصوات عصواتهم تدق الأرض وتقرعها. عصاوات كم بها تعثروا بعيداً عن صوت الحق.

الرسالة الثالثة عشر ((13))

عزيزي ساندريللو اعذرني إن كنت قد تأخرت عليك في الكتابة، كان علي أن أستقبل عائلة كبيرة في بيتي بعد أن أُخرج أفرادها عنوة من منطقتهم... لم أكن مستعدة لهذا بل كانت مفاجأة محزنة كبيرة لي، كان من بين أفراد هذه العائلة عجوز مقعدة اضطروا إلى حملها وهم يهربون بعيداً عن القصف.

لا أستطيع أن أنسى نظرات الذهول والانكسار بعينيها.

_ طلبوا منّا مغادرة بيوتنا على وجه السرعة.. كانت الدور التي حولنا تتساقط مدمرة تماماً.. وجارنا فقد اثنين من أبنائه الحمدلله تمكنا من الخروج جميعنا سالمين

كان الصبي ابن العشرة أعوام يتحدث بانفعال وصوت متهدج وبالكاد كنت أستطيع تمييز ملامحه وسط الخطوط السوداء التي انسابت على وجهه...

الوضع جنوني للغاية لم يتوقع أحد كيف ستتغير الأحوال إلى هذه الدرجة.

كان علينا أن نتساند معاً، المناطق جميعها تقصف على حد سواء بطريقة أو بأخرى من جهة أو من جهة غيرها... والشعب عالق بين السندان والمطرقة.

عزيزي ساندريللو... وكأنني في دوامة العودة، أنا تلك الحصاة المرمية في تلافيف الزمن، أدور وأدور بين ردهات الأيام والسنين لأعود من جديد وأطفو على السطح قبل أن أغوص في قاع اللاعودة حيث رمال ساعة الزمن قد غاصت وامتدت عبر محيطات الخلق الأول.. أحملق بعيون الأسماك الخرساء، بواحة إلا من فقاعات الوهم تنفثها بعد أن أرهقتها فجوات اللاشيء.

أعود من جديد لأتأمل جدران عزلتي، وحيدة أنا برحيل الأهل وغياب الأبناء..

جدران تنعكس عليها خيالات الذاكرة تتراقص مع ضوء الشمعة..

وكأنها... لعبة الوقت.

زمن حوصر ضمن إطار... وأطبق عليه بقفل...

ساندريللو لا شيء سوى الصمت.. أوهم نفسي بأن ثمة من يقرع الجرس وأتذكر أن لا جرس يقرع في غياب الكهرباء... ألاعب سطح الطاولة بطرقات من أصابعي لأوهم نفسي بأن ثمة من يطرق الباب... تنساب من عيني دموع تتساقط على الطاولة هي الأخرى دموع خرساء... وأبقى مع خوائي.

هل كانت الخشية على هذه الحجارة؟ أهي الجدران ما نحاول الحفاظ عليها؟ جدران ترتفع... لتفصل ولا تلبث أن تهدم.. لتعيد الجمع...

أي هي جدراننا؟

أم هي غفوة الماضي أو بالأحرى... محاولة إيقاظ الحاضر من غفوته؟

هو القلق هو الضجيج ساندريللو.. ما بين الصمت والسكون... ضجيج لا يرتوي

يخدشه التساؤل بانيابه...

والأعماق بؤرة يستلقي بها المدى إلى أقصاه
أرمي رجائي... حصى أمنيات... عله يجيب!
صنم.... لا يعرف سوى الصمم
لا يعنيه صراخ أو ألم
عبث وادعاء... كذب يطال السماء
والأرجوحة... حبالها الزمن
كم مر من زمن؟
والصرخة تدوي... أما كفاك؟ أما آن لك
أن تكف ألن؟ ألن؟
أصبح للحجارة صدى... لريح، لخواء
دمار.. للعلن
أحجارة تبقيها؟
والأرض.. لمن؟ لمن؟
طوبى... لمن رحلوا... أرواحهم حملوا.

ساندريللو أشتاقهم.. ساندريللو

لكن لا يسمح لنا بالسفر لا فيزا تمنح لسوري... أحلم برؤية طيارة في سمائنا... طيارة مدنية سلمية أحلم حتى بسماع صوت صافرة القطار مازلنا بدائيين ربما... لقطاراتنا صوت الصفير.. لا أعلم هل مازال له صوت الصفير ذاته.. ربما تتداخل علي الأمور الآن... أغمض عيني وأصغي إلى صوت قطار قادم من بعيد من الشمال الشرقي... مازلت مغمضة وصورة زوجة شابة تقف على الشرفة تنتظر بلهفة سماع صوت القطار الآت بزوجها من تلك المنطقة حيث كان يعمل، كان

للهفة الانتظار طعماً آخر لم يكن مغموساً بمذاق الخوف أو القلق كما الآن، حين يغادر أحدنا لايعلم إن كان سيعود أم لا وسط القصف والاعتقالات... الخوف بسط سيادته على كل شيء، صدقني تلفت الآن لاشعورياً خلفي بذعر... لا تسأل... نعم بتنا نخاف من كل شيء، وأصعب الأمور يا ساندريللو هو خوف البريء.

ساندريللو أيها البريء القابع في سجنك.. تفهمني أكثر من غيرك...

في شرقنا.. لم تعد القطارات تسير

في شرقنا.. لم يعد هنالك مفهوماً للسرعة.. سوى سرعة الرحيل بقصف أو بأسطوانة غاز.

في شرقنا... الأسطوانات الموسيقية... غابت

مشروخة قد أصبحت.. بتهاليل السلام الذي لا يحضر...

في شرقنا... غابت كل المعاني الجميلة

أسطوانة موسيقية؟

يا للترف.. أنقولها؟

لكم بات حلماً أن نحظى بأسطوانة غاز!

وكام بات ذعراً وقتلاً... وموتاً

أن... تهوى على سقف بيت... أسطوانة غاز.

ساندريللو... اعذرني كنت أحاول.

ساندريللو

أجدنا ضمن دائرة، حلقة مسننة من الداخل والخلاص تمزق... الخلاص شبه مستحيل؛ كيف لنا الخروج متدافعين من دائرة مسننة دون أن نتمزق؟ كيف بالله عليك كيف؟ وكيف إن كانت هذه الدائرة كطوق

ناري كما لدوائر السيرك تلك التي تحيطها النيران والمطلوب منّا أن نقفز منها كما النمور؟ كيف للخرفان أن تقفز في دوائر النمور؟ كيف؟

ألم أقل لك أنه ما من خلاص؟

نستغل في قدرتنا على التحمل إلى آخر نقطة.. البارحة كان ثمة مشهد مؤلم يجري أمام عيون المارة، لكن المخزي أنهم لم يفهموه، بعض الأمور تحدث لتكون كما إشارات أو ومضات تلمع بالفكر لتزيل ثخن العتمة الكامنة فيه ومع هذا وكأن للبعض فخر بكاتم الذكاء الذي أدمنوا على ارتدائه على رؤوسهم رغم أنه تحجيب للعقل والمنطق.

كنت أسمع عبر النافذة صوت نهيق حمار يشتد وصوت المارة يتعالى دون أن أفهم ما يجري قمت بفتح النافذة لأجد الحمار المسكين وقد سقط أرضاً وفوقه حمل بالأطنان ربما، حمل يتجاوز قدرته، لكنه كان مقسراً على الطاعة، طاعة من يقوم بعلفه دون تعليق مباشر... وبتلميح غير مباشر... مهما أردنا أن نفهم الحمار أن من يعلفه... إنما يفعل هذا ليحمله كل ما باستطاعته أو أكثر من تحميله..

لن يفهمها حمار. "الطاقة والقدرة"

أفكر بجملة حسابية.. تزداد طرداً هنا أجدها تتناقص طرداً، شيء له علاقة بالنسبة والتناسب.

طاقة شعب تستنفذ.. الحمل أكبر من قدرة الاحتمال.

ربما اللجوء إلى التفسير عبر التناقض يكون هو الصح... كل ما يصبح في حدود اللامعقول يفسره المنطق ببساطة اللايمكن.نعم هي الأمور هكذا استعصاء فهم بعض ثغرات المشاكل يقود إلى وضوح رؤية استحالتها، فيفسرها العقل بتصنيفها ضمن العبثيات التي تؤول حتماً إلى الرفض.

لكن هذه الصحوة تحتاج إلى الجرأة على الإفصاح...

ساندريللو بات الإفصاح حتى للذات نوعاً من التابو يخشاه المواطن، هذا المواطن الذي أصبح هذا المسمى يضايقه كما اللعنة.

كما لو تعشق كلمة وطن وتكره كلمة مواطن

كما لو تقدس كلمة أمومة وتحاول التنصل من كلمة البنوة

شيء أصبح من التعقيد بحيث أن تفسيره بات من الصعوبة بمكان.

وعي الشعب يصنع أمة ناجحة... لكن؟

ساندريللو نحن في زمن الوعود الكاذبة... شعوب كاملة تقبع تحت بند الانتظار... انتظار تحسن وانفراج لاختناق لا يغادر... تنتظر ظروفاً معيشية أفضل وفتح بوابات على آمالها وطموحاتها لكن ما يحدث حقيقةً هو التالي: في حال إشارتها على أي بوابة أو طاقة فرج يسرعون لغلقها بوجوههم أولئلك السادة المتأنقين بابتساماتهم المزيفة نعم هم بأيديهم مفاتيح كل شيء... أرى أن الشعب كما لو كان سربا طويلاً بامتداد لا نهائي وقد تحلق أمام أولئلك السادة الخطباء المتأنقين الملوحين أمامهم بحلقات لمفاتيح يخال الشعب أنها مفاتيح لغرف بنوافذ تطل على السماء والهواء لكنهم بدلاً من هذا يجدونها أقفال لأقبية مظلمة يقبعون بها إلى مالانهاية.

الوعد الكاذب... وعوداً بينوكيوية لكن غاب عن بصيرتنا رؤية الوجه الحقيقي لكل بينوكيو... مع أن للأمور دلالاتها... لكن للغفلة كل الأمد، لمن لا يبغي الصحوة.

استنسخ بينوكيو... وبات يتجول مع مستنسخيه

دون فيزا... ومع هذا لم يلحظْ أحد... كيف تتطاول هذه الأنوف.

استنسخ بينوكيو... وبات يتجول مع مستنسخيه

دون فيزا... ومع هذا لم يلحظْ أحد... كيف تتطاول هذه الأنوف.

ساندريللو... زمن الموات هو نعم هذا زمنه

إلا أنه ليس الموت هو الخصم... بل الحياة نفسها... تسحب منا أطراف ما نمسكه بكل قوة... ليتمزق

هي لعبة الحبل تماماً... والغانم الأكبر... تلك الأرض التي يتهاوى عليها الخاسرون.

الرسالة الرابعة عشر ((14))

عزيزي ساندريللو..

اشتقت إلى وجودك.. غائب أنت دون أي خبر يعلن عنك!

ساندريللو أتذكر سر الاسم؟

حين أطلقت عليك هذا الاسم ما إن أخبرتني أنك ما بعد الثانية عشر تختفي لتعود فقط كل خمسة عشر يوماً لأجدك بين الثانية عشر منتصف الليل والسادسة صباحاً.

تجيد أنت اللعب بأوراق الزمن... مرغماً بلا ريب... لكنني أبحث عنك بين ثوانيه.. ما بين حضورك وغيابك تختار الرقم الكامل أو النصف... تختار منتصف الليل لتظهر أو تختفي... وعلي أنا أن أحفظ في كل مرة خطوات اللعبة... متعب أنت يا هذا.. متعب.

كما بلعبة التناقض ما بين الظهور أو الاختفاء ما بين الليل والنهار... ما بين الحضور والغياب أنت الذي تختار والمضحك في الأمر أنك لست بصاحب القرار الحقيقي لظهورك أو غيابك... مقسر أنت بسبب ظروفك أعلم هذا تختفي ساندريلا تاركة خلفها حذاءها... في الثانية عشرة وتختفي أنت تاركاً خلفك كل التساؤلات... كما لون العتمة حين يسدل فجأة ونحتار بالنور كيف يظهر.

أكتب إليك وأنا أشخبط بقلم الحبر الجاف مابين شرودي وكلماتي تتوسع رقعة الأزرق الدائرية التي تدور مع القلم لتصبح كما الدوامة، تنقلني هذه الخطوط إلى ألاعيب طلاب المدارس بمرحلة الطفولة وادعاءاتهم بتفسير الخطوط حسب منحاها... المضحك أن كل طفل من بيننا كان يحلو له أن يتخيل أهميته الفكرية نسبة إلى أقرانه وكانت نظرات الدهشة وصيحات حماسهم تزيد من ادعاءاته ليتفنن أكثر بتحليلاته المدعاة.

لعبة طفولية لكن هي بداية معرفة مبدئية لطريق منهج التحليل وربما إن طورت عبر التأمل والتفكر والملاحظة ستزيد من رغبته الجادة بالعلم أكثر.

اللون الأزرق يتسع أكثر فأكثر ليصبح غريباً وفاتناً، أذكر الأزرق الملكي "roi _bleu" كان مجرد ذكر اسمه المركب هذا يمتعني ويترك المجال لمخيلتي بالعودة للعصور الماضية وتخيل أزياء طبقة النبلاء... حتى اللون له احتكاره!

أغمض عيني وأسرح بتفكيري لأجد شبكة كبيرة من اللون الأزرق تغطي السماء بتدرجات مختلفة... أسمع حفيف ورق أزرق بلفائف كبيرة وأسمع صوت مقص وضحكة والدتي وهي تقوم بتجليد كتبنا المدرسية بهذا الورق الباهت الزرقة، طقس سنوي كانت تمارسه كل الأمهات مع بداية العام الجديد حيث كانت الكتب تغلف به وفوقه طبقة من النايلون الشفاف مع "تيكيت" تحمل اسم التلميذ وصفه واسم المادة الدراسية المغلفة. لا تلبث الصور أن تنتقل لتصبح أكثر وضوحاً رغم العتمة شريط من حياتنا يمتد أمامي لأجد أن زجاج نوافذ الغرف قد غطي بهذا الورق الأزرق وبعضه قد طلي أيضاً باللون ذاته.. وأسمع أصواتاً توصي بإطفاء نور الشمعة أو المصباح الكهربائي الصغير... وصوت والدي قائلاً:

ثمة تنبيهات بوجود غارات اسرائيلية علينا التعتيم كما أوصينا...

يترامى إلى سمعي صوت جارنا العجوز لتتداخل معه الأصوات بين مشاكسات طفولية لأولاد الجيران وبين أصوات النسوة الحادة.

_ من يعشْ أكثر يرى ويسمع أكثر؛ نحن الآن في عام 1967 ونخاف من الغارات الإسرائيلية... يقولون إن ثمة طائرة حطمت جدار الصوت فتحطم معها كل زجاج المناطق التي مرت فوقها في دمشق.

ماذا رأيتم أنتم من حرب سفر برلك؟

لم تعانوا كما عانينا... كان يتحدث بصعوبة وطقم أسنانه يتراقص في فمه مع كلماته.

سفر برلك كانت الأمور جنونية، شباب بأعمار الورود قضوا ولم يعودوا.

كنت أسمعه وكطفلة صغيرة لا أفهم ماذا يعني لكن كلمة سفر برلك كانت تتردد كثيراً على لسان العجائز لذا حفظتها تماماً.كنت أتساءل عن سبب تلبيس الأسنان لبعض الناس بالذهب؛ وأقصد بهذا عجائز ذلك الزمن..

ساندريللو بعض الصور الغائبة عني لسنين طويلة تظهر أمامي الآن بوضوح أكبر، ربما لأنني بتُّ قادرةً على فهمها.

أذكر تماماً كيف كانت تتعالى أصوات الجيران وهم يتدافعون على الدرجات المؤدية إلى الأقبية حيث الملاجئ... كان معظم سكان حلب بذلك الوقت قد تنبهوا إلى ضرورة ترتيب الأقبية والملاجئ بعد تنبيهات الدولة عبر الإذاعة والتلفزة التي كانت نوعاً ما ببدايتها...

ساندريللو تحدثني أنت عن حربك ومواطنيك بخصوص الحق والعدالة، وتسجن لهذا أيضاً!

الحرب لدينا كان لها مفهوماً واحداً، حرباً مع العدو أي مع إسرائيل... هذا ما كنا نفهمه كتعريف للحرب. لم يكن الناس حينها قد فهموا معنى هذه الكلمات النبيلة الأخرى، ربما لأن الأمور كانت معقولة حينها... لم يكن الشعب يعاني ما يعانيه الآن.

أسمع صوت صفارة زمور الخطر... عبر سيارة تمر في كل الأحياء... تتعالى من حولي أصوات الجيران في الملجأ الذي كنا نختبئ به... هي فقط غارة تجربة... الدولة تحاول تمريننا على حالة الطوارئ لنجيد التصرف بحال حدوثها.

أذكر بعيداً عن حرب ال 67 صوت صفارة الإنذار في الساعة الثانية عشرة من ظهيرة كل يوم الخامس والعشرين من كل شهر.

أتلاحظ ساندريللو رقم اثني عشر؟

يتكرر معنا هنا أيضاً، كما لو كان رقماً فاصلاً ما بين الطوارئ والخطر الحقيقي. بكل الأحوال كانت مجرد تجربة... بالنسبة لنا على الأقل لم تمتد لسنوات أو لأشهر كما يحدث الآن... مع أن العدو كان حقيقياً للغاية، لكن صدقني كانت حرباً رحيمة نسبة لما نعيشه الآن... احتلت حينها القنيطرة من قبل اسرائيل في شهر حزيران من عام 1967

واستردت فيما بعد، لكن مع كل هذا ومع كل المناورات الحربية إلا أن خسارة الشعب لم تكن يومها كما الآن.

ساندريللو... صبراً ساندريللو... مدن كثيرة تحتل، ومن ثم تتحرر...فما بالك وأنت السجين ألن تتحرر يوماً؟ عل هذا اليوم قريب.. قلقةٌ أنا عليك للغاية؛ منذ ثلاثة أسابيع لم أحظَ بخبر منك... كنت قد أرسلت

لك بعض الكتب التي طلبتها مني... لا أعلم إن كنت قد استلمتها... لم أجد الكتاب الذي طلبته مني "بروتوكولات حكماء صهيون" لكنني أرسلت إليك رواية البعث ل "ليو تولستوي"... أيها الشاب قرأته أنا منذ عقود.. كان للأدب الروسي سطوته ومكانته العالية أستغرب لمَ طلبته؟ أرسلت إليك أيضاً كتابين ل "جون شتاينبك" طريق التبغ وعناقيد الغضب أعتقد أنك ستحبهما... لا أعلم بالنسبة لي أحب هذا الكاتب... وكذلك أرسلت إليك كتاباً لطاغور... كتاباته وفلسفته تدخل السكينة إلى الروح.

عزيزي ساندريللو علي أن أغادر الآن سأحاول شراء المزيد من الشموع... أعتقد أن موضوع الكهرباء سيطول.

الرسالة الخامسة عشر ((15))

عزيزي ساندريللو ..

أكتب إليك وأنا بالكاد أستطيع رؤية ما أكتبه... لكنني بحاجة للتنفس معك... كلانا نحتاج أوكسجيناً من صدق.. أفكر الآن بتركيبة الهواء. ما نحتاجه منه هو خمسه بالتحديد، فالأكسجين بتركيبته لا يتواجد إلا بنسبة 21 % من الهواء... والنسبة العظمى للنتروجين وثلاثة بالمائة كربون وأقل من واحد بالمائة غازات خاملة...

ساندريللو لا تضحك بضيق على ثرثرتي هذه تمهل رجاء، فكر بحكمة التروي لاستقاء الحقيقة... فكر كيف أننا بمحيط نحتاج منه إلى خمسه لنتنفس، بينما هم يخمدون كل مايجعلنا قابلين للحياة.. أفهم جيداً أن للحياة توازنها وشروطها ولكن ماذا عن وجودنا؟ ألا ترى معي هذا الرابط النسبي بين ما هو كائن وما هو مطلوب؟

حسناً لنعتبر بالتالي أن حاجتنا هي فقط الخمس.. قانعون نحن بأن يأخذوا الباقي فقط ليدعوننا نعيش... هو نوع من المقاربة المادية مع تلك المعنوية... لو تطبق ونأخذ حاجتنا لنحيا لما كان الاعتراض؛ لكن أن يسحب منا كل شيء كما لو كنا أمام مكنسة كهربائية تشفط الغبار إلى حدود الالتصاق بالسجاد بالأرض... لسنا بالغبار ولم نخلق لتشفط مننا أنفاسنا... مؤلم ما يعيشه الإنسان ..

ساندريللو

نذوي ماقبل وجودنا حتى.. هل أنت مدرك لهذا؟ شعلة الحياة كما لو كنا عود ثقاب مبلل لا حياة لنار شعلة به... مازلت أفكر بالورق الأزرق الذي كان يغطي النوافذ أيام الحرب... لعبة اللون خديعة. نعم هي خديعة، كنا نرى الأزرق صفاء وأصبحنا نراه تورية من أجل السلام... بكل الأحوال... كانت حرب السابع والستين أبسط بكثير من حرب مازلنا نعيشها الآن... نخجل أن نقولها لكننا قلناها، ما يفعله أهل البلد أقسى مما يفعله العدو! الحرب الأهلية دمار إنساني شامل وبشكل خاص إن كان من يديرها ويغذيها هو من يجب أن يكون هو المخلص... لا غرابة في هذا فالنيران قد تكون دفئاً وقد تكون وبالاً، لها أن تختار دور البطولة فيما تراه الأنسب.

الوضع ببلدك له شكل آخر من الأذى.. أذى الفساد قد يكون ترفاً بالنسبة لأذى الدمار .بكل الأحوال الإنسان هو الثمن. بالنسبة للثمن فكم أصبح سعر الدولار اليوم؟ هل لديك فكرة؟ لا لا تتساءل أنا أبعد ما أكون عن التجارة.. فقط أتساءل... ربما التساؤل هو لبنة الوجود الأولى... نتساءل لنجد جواباً يكون ركيزتنا في بناء سلم أولوياتنا... أحياناً أولوياتنا يتغير ترتيبها على قدر الموجود... لكن ثمة أول لا غنى عنه لا ولن يتأثر بقائمة الموجودات وتحولاتها المرتبطة بالتغييرات... هذا الأول هو "الضمير"

هو الحسبان الأول الذي لا يغيب... هو تابو الإنسانية المفروض عدم المساس به

أيها الغائب اترك خلفك كل شيء قبل أن تغادر، إلا الضمير .. ليكن ظلك وحقيقتك.

ساندريللو... هل ننطلق بأبواق تعلن عن وظائف شاغرة للضمائر؟

كثيرون قد غادروا وبقي مكان ضمائرهم خالياً... بعضهم استلقى ضميره كظل مطبق تحت جثة هامدة في سجن بارد وبعضهم كاد ضميرهم أن يتمزق تحت سياط التعذيب فحاول التملص بكذبة... لا نعلم يا ساندريللو..

كل ما أدريه أن معظم الضمائر غادرت وطفت على سطح مياه بحر يلاعب أجساد الغرقى... هناك أيضاً كان الأزرق يمارس مرة ثانية لعبة الخديعة... لطالما توهمناه الأمان والصفاء لكنه بات ناقلاً لسترات نجاة طافية دون أصحابها... لون برتقالي طاف كما أزهار لوتس تنساب بعيداً عن إنسانيتنا تذكر العالم بأسن الرحيل المدبر لإخلاء ساحات الوطن.

هو الكرنفال نعم هو كرنفال حزين اختير له توقيتاً عالمياً تشارك في طقوسه العديد من الشعوب المغلوبة على أمرها، كالدمية في كرنفال.

على ظهر سفينة آيلة للغرق يراقصها كل المعربدين... المقنعين...

ويمارسون طقوس الوداع ما قبل الغرق... يستلون خناجرهم ويمزقون أجزاءها.

كالدمية في كرنفال... ترمى تحت أقدام من خلعوا أقنعتهم ومضوا...

كالدمية في كرنفال... ثوب متسخ... .وأقنعة مكسورة... كانت براقة...

كالدمية في كرنفال... وسماء شاركت في العربدة فاشتعلت، وأحرقت سوريا..

أبحث عن ضماد أضمد به كاحلي، إذ كنت قد تعثرت اليوم بطريق العودة حيث كانت العتمة هي السبب، وكنت أستعجل الوصول إلى بيتي، قد أعلنوا في الحواجز عن تلافي الخروج بعد الساعة الرابعة مساء حيث تشتد الاشتباكات ويشتد معها القنص أيضاً.

كنت مرغمة على الخروج لتأمين حاجيات البيت من المعبر، لو يدري الناس كم أن الوصول إليه كان صعباً، كنت مضطرة لهذا فكل المحال

التجارية قرب بيتي مقفلة فاضطررت للذهاب مع جارتي(أم عبده) التي تحاذر من مغادرة أبنائها خوفاً من قنص أو اعتقال، هكذا هي الحال... إنها الحرب سيدة المفاجآت السيئة.

_ ضعي شيئاً على رأسك، لن يكون مظهرك هذا مناسباً بين تلك الجموع الغفيرة، لا نعلم كم من الدواعش متغلغل هناك. التكفيريون منتشرون بكل مكان وكأنه لا يكفينا ما نحن به.

قالت كلماتها هذه وهي تحثني على الإسراع.

طبعاً ساندريللو لا أستطيع أن أصف لك المعبر كما يسمونه... أعتقد أنه شبيه بيوم الحشر، يوم البعث، لا أعلم لم كان هذا التداخل اللامعقول لمشاهد لوحة القيامة لمايكل أنجلو كنت أشاهده وأنا أتدافع بقسوة بين حشود الناس... أعلم أنك الآن تضحك ساخراً وتتمتم بكلماتك المعهودة "البورجوازية اللعينة" لا ليس ما يخطر ببالك البتة، فما كنت فيه لم يكن نوعاً من الترف الفكري الوافد بغير مناسبة، لا.. بل هو نوع من فانتازيا التداعيات الإنسانية التي نحن البشر نكون عاجزين عن التحكم بها... هي اقتحام لا إرادي لمداركنا... بتلك اللوحة لون الجسد البشري هو الطاغي وهنا كانت السطوة للون الألم...

كانت لوحة ملونة بدرجات الألم والهزيمة والحنق... لوحة صاغتها ريشة الوحشية كانت ضربات هذه الريشة مسننة للغاية تنهال على هذه الحشود تنهشها بحدة... تصور يا ساندريللو أنني كنت أرى ما يجري وكأنه يرسم بريشة من أسياخ معدنية تغرس أكثر فأكثر لتطلى اللوحة بلون الدماء.

اللعنة على حالة الغيبوبة الذهنية التي تجتاحني في حالات الألم لأنفصل تماماً عن الواقع عبر غوصي به أكثر فأكثر...

نعم هو التناقض الأكبر إن كنت تفهمني.
هو الهروب عبر التماهي.

الرسالة السادسة عشر((16))

عزيزي ساندريللو...

أتلمس وجودي عبر كلماتي إليك،كما أبواق الحقائق حين تهرب بها بعيداً خوفاً من حصار الصوت، تهرب بها بعيداً إلى حيث الأعلى، حيث ثمة قمة تقف عليها قد تكون قمة جبل، قمة تختلف عن تلك المسميات لمؤتمرات القمم المدعاة... تهرب ببوقك حيث تصرخ خوفك، تصيح هلعك، تشجب جبنك، تناشد إلهك بأن كفى... كفى... كفى.

ساندريللو أعلم جيداً ببداهة فيزيائية انتقال الصوت عبر ذبذبات وتحوره وترددده عبر ما يسمى الصدى.. أعلم جيداً، أنه تبعاً لما درسناه لانتقال الصوت، أنه ينتقل من الأسفل إلى الأعلى بوضوح أكبر، كما اتبع في مدرجات المسارح اليونانية القديمة، حيث تحلق الجمهرة حول صوت الخطابة

ينطلق الصوت من الداخل، من الباطن، من القاع لتصل ترددداته بتطوافها إلى كل الأسماع..

لكن؟ المضحك أن المنابر تكون بالأعلى في المساجد والكنائس والعروش ومنصات الحكم..

لك أن تفكر ما يعنيه هذا "comment no"

تعودنا على حماقة التصديق، بالوعود الآتية... اعتدنا صمت الأطفال الموعودين بالحلوى بعد عودة الأهل... لا أعلم لم اعتدنا

الانتظار !؟ أو بالأحرى كنا نؤمن بأن ما نريده هو دائماً لن يأتينا إلا بتفضل الغير علينا به.

ساندريللو... ببساطة تامة نحن شعوب تمارس فن الإصغاء ببراعة.. وحين حاولنا الانتقال إلى ممارسة حق الصوت أخمدت أصواتنا... وحوصرت بشكل واحد... عليكم التصويت ..وحذف معه كلمة حق .

ثمة فرق بين الصوت والتصويت .. الفرق شاسع حين تصبح الكلمة أو الجملة مركبة... مع رديف مشروع يتمثل بكلمة(حق) .

ساندريللو مازلت أصنف ما كنت قد أخرجته من السندرة علي أن أرمي بالكثير من الأشياء قبل أن أسلم البيت إلى المستأجر الجديد ..أنظر بحنين إلى لعبة قطار يسير على سكة دائرية... ياااا للزمن هذا القطار الذي كان لفترة زمنية قديمة الهدية المفضلة للأطفال، لعبة أخي، ومثلها بعد سنوات طوال لإبني... كنت حينها أتأمله بجذل طفولي أنا الأخرى، وكنت أضحك وأنا أشير بيدي إلى حلقة السكة الحديدية الدائرية التي يسير عليها،وحتى حين كنا نغير بترتيب القطع، كانت تصبح أقرب إلى الشكل البيضوي وبكل الحالات حلقة مغلقة... أذكر أنني فتحت تلك الدائرة وأردت للقطار أن يستمر بمسيره، فما كان منه إلا أن مال وانقلب على جانبه بنهاية الخط..

اللعبة هكذا... كان لها قاعدة الدوران على ذاتها... وإلا؟!

وإلا كما هي حالنا الآن... هي قواعد اللعبة؛ التجاوزات ممنوعة.

ساندريللو... الوضع مشابه تماماً.. كما أنا، كما نحن، كما أنت (الدوران على الذات).

حيث لا مخرج من الحقيقة.. من صرخة الذات، من مساحة محددة في غرفة سجن...

يصفر القطار... وتزفر غضباً.. وأجهش حنقاً.. كل هذا في دائرة الاستعصاء.

بعيدون عن منافذ الضوء نحن، أوبالأحرى مبعدون عن منافذ الضوء، نتوغل في كهوف الظلمة بحثاً عن الشمس... قالوها يوماً: ثمة شمس في الجانب الآخر من السماء.. هي شمس أخرى لا علاقة لها بآلية الزمن ولا بجغرافية الموقع من حيث الشروق والغروب... وصدقنا!.

ساندريللو العزيز..

أشرب قهوتي الآن هل تصدق أنني وضعت بها قطرة من ماء الزهر؟ وذرات من حبيبات السكر... رغم أنني لا أحب مذاق السكر في القهوة.. لكنني وددت أن أجتر ذاكرتي وأتجرع حنيني لفنجان قهوة ممدد بماء الزهر والسكر كما كانت يد جدتي تقدمه لي بطفولتي لأحتسيه من الطبق لا من الفنجان.. لا أعلم لم قمت بهذا الآن... ربما احتجت لشعوري بالأمان كما كان بطفولتي... كلنا أطفال بطريقة ما نحتاج إلى يد حنون دافئة تشعرنا بالاطمئنان، غابت الطمأنينة منذ زمن بعيد... بالنسبة لك أنت تأكدت من هذا من موقعك الذي أنت به.. بالنسبة لمن هم في السجن الأكبر... مازلنا ربما... الحالمين ذاتهم.

سذاجة... نعم سذاجة مضحكة مؤلمة.

ساندريللو... مازالوا يتابعون الرحيل... ومازالت سماؤنا تضج بالدخان الأسود وبلمعان القذائف... كنت أرقب القلعة منذ قليل، أحاول رؤيتها بصعوبة وأنا على سطح بيتي حيث كنت أتفقد خزان الماء الذي تبين أنه ثقب جراء قذائف استهدفت مبنانا...

العطش حقيقة لا تغيب عن مدينتنا... كما كل الحقائق القبيحة التي نراها كل يوم..

تلك الميدوسا... ما تزال ترقص على سفوح قلعتنا وزوربا... على شواطئ اليونان... تتعثر خطاه الراقصة بأجساد غرقانا..

أصبح لنا منافذ غريبة... بعد أن استنفذنا مفاتيح الحلول...

معابر وطرق... أغلبها لا تؤدي إلى شيء.. إلى الموت ربما.

لا عدالة في كل ما يجري.. لا عدالة.

نزعت تلك العصبة عن عينيها

رمت ميزانها الذي أثقلها حمله... وولت هاربة

لا تلوي على شيء.. تلك التي اسمها "العدالة".

اللامبالاة... لها كل السيادة أولئك السادة

يقلمون أظافرهم... ليكتبوا نهاياتنا... بأناقة.

ساندريللو... نعرف الواقع جيداً

أسود... أبيض... بيادق.. فيل.. حصان.. وزير..

شاه...

شاه...

ليس هنالك من نرد.. كل شئ مدروس

كش ملك... واعتلاء عرش النصر لآخر.

كل شئ مدروس طاوله الزهر... أحجار متماثلة

أسود... أبيض... ونرد... لاعب الحظ إن شئت

ما من شاه... ما من وزير... ما من... بيادق

السقوط للجميع.

أكتب لك فيما بعد، عليّ أن أحصل على بعض الماء من الجيران.. الجميل أننا نتكاتف كلنا معاً لنستطيع المضي بحياتنا.

الرسالة السابعة عشر((17))

عزيزي ساندريللو ..

كيف أصبحت الآن؟ كنت قد أبلغتني بأنك تعاني من نزلة شعبية حادة بسبب رطوبة المكان الذي أنت به... أفكر كثيراً بما تعانيه..

هم قطعاً لا يأبهون، مامن أحد يأبه أو يبالي... ناهيك عن أن العالم خارجاً يعاني من الداء ومن افتقاد الدواء.. يتحججون بغلاء المواد وندرة الحصول عليها وبإغلاق المعامل ومحاصرة بعضها بالحواجز التي تمنع وصول العمال إليها.. هذا عدا عن أسلوب مافياوي جديد لفرض أتاوة الحراسة أو المرور... الكل لص منتفع... تنشط السوق السوداء خفية في بعض الصيدليات فتسرب أدوية على أنها أجنبية المصدر بأسعار باهظة... يتحجج الجميع بالوضع الصعب وهو فعلاً وضع مأساوي بامتياز.

ساندريللو توفي البارحة جارنا في المبنى المقابل لم يستطع أهله تأمين جرة الأوكسجين له بعد مماطلات ومساومات من الجهة التي كان من المفترض بها تأمينها... الحياة هي لمن يدفع أكثر..

_ خيو الله وكيلك عمنطلع وروحنا على كف عفريت، القذائف من كل الجهات.. مابتوفي معنا والمعلم كمان غلاها علينا.

كنت أرى سائق البيك آب وهو يتلفت حوله ويشير بيديه بتوتر وعصبية.. وهو يناول الجار جرة الأكسيجين ليسحبها إلى داخل المبنى.

_ ارتاح، الله يرحمه.

كانت كلماتهم تتردد على مسمعي وهم يخرجون بالميت حاملين إياه على ظهورهم دون تابوت.. بقيت جثته ليومين ولم يستطيعوا الخروج بها لدفنها.. القذائف تنهمر من كل الأطراف والقناصة على بعض الأسطح.

لم يدفنوه حيث المقبرة بل قاموا بحفر قبر له بالحديقة القريبة من الحي.

ساندريللو كأننا في مدن الظلام بل هي فعلاً هكذا إذ اعتبرت حلب المدينة الاكثر تضرراً والأكثر إرهاباً...

أعلم أن الوضوء بغياب الماء يكون تيمماً فما بالك أن الموتى الآن يغسلون تيمماً؟

لا وجود للماء نحاول الحصول عليه عبر صهاريج تعبأ من الآبار هذا إن استطاعت هذه الصهاريج الوصول إلى مناطقنا..

أصبحنا نرى رؤوس الناس لامعة بالشعر الذي باتت المفرزات الزيتية لجلدة الرأس تكلله... هو تاج الصبر ربما، نوع من أيقونة إنسانية جديدة تختلف عن تلك التي باللوحات المقدسة للسيدة العذراء وعن إكليل الشوك للسيد المسيح.

صدقني كما تناثر حبات سبحة فرط عقد خيطها، أحاول تجميع آلاف الصور بذاكرتي من هنا وهناك... تداخلات صعبة الفهم إن تداخل الزمن فيها، أحداث قد أذكرها قبل أحداث أخرى قد سبقتها؛ لا يهم فالسبحة واحدة والعنق واحد... حين تكون السبحة المفروطة كما

الأنشوطة التي تحيط بأعناقنا وأعني بها الأحداث هنا واستخدامي لكلمة سبحة لا أقصده بالمعنى الديني بل بالمعنى المجازي التشبيهي، كل حدث هو حبة من ذاك الطوق الإنشوطة التي أحاطت عنقنا بأناقة نعم فرطت الآن حباتها وتبعثرت .. أحاول جمعها... إلا أنها فرطت بعد أن حز العنق وبات كعنق ديك نافق مسترخ على أجنحته بعد أن عدم صوت صياحه... لا يقظة، أي يقظة نبغيها إن غابت يقظة الضمير... ساندريللو اتضح أن اليقظة مكلفة جداً، إن كانت مع أسهم الحياة في بورصة المفاوضات السوداء...

حين صاح الديك بحكايا شهرزاد... كان علينا أن ندرك أن وقت اليقظة عند البعض هو وقت النوم عند الآخرين... فشهريار كان مع صياح الديك غفوته.

إسأل عن شهريارات هذا العصر.. وإن شئت الصحوة لهم... عليك حينها أن تعدم الديوك أن تجز بأعناقهم ربما... ربما حينها إن تساءلوا عن غياب الصياح أن يصحوا بتساؤلهم..

عزيزي ساندريللو

في كفتي ميزان من قش

جثم العدل على حطام الإنسان...

قالوا يومها إن العدل أثقل من أن تحمله كفة ميزان.

أعلم أنني أبالغ بالفانتازيا الفكرية التي أعيشها.. لكن ألا ترى معي أن لفانتازيا الواقع دوي أكبر من كل أصوات القصف والقذائف؟

الاندحار... اندحار الإنسانية تماماً..

كانوا قد تحدثوا كثيراً عن الثقب الأسود هناك في الأعلى، أعجب كيف أنهم لم يبحثوا عن الثقب الأسود في أعماقنا .. ثقب من الاحباط يتسع أكثر فأكثر قادر على ابتلاعنا.

ثقب أسود... لك أن.. إليه.. تتسرب

تحتاج قبل هذا... أن تنهض برأسك... حتى الثقب الأسود... بعيد عنك... رغم أنه ثقب وأسود

ارفع رأسك... تعرفه جيداً... ذاك اللون الاسود

لكن قد تاه منك أن تعرف أنك للوصول إليه

عليك أن ترفع رأسك...

حتى هذا... لك أن تصله.. إن علمت كيف ترفع رأسك..

ربما الأمر سيان؟

لا تضحكني... صعب هو التلاشي

لكن شتان ما بين حفرة سوداء وأنت تبصرها مطأطأً....

وبين.... ثقب أسود... تصل إليه رافعاً رأسك.. لكنك تمتلك كل السواد بداخلك لا أقصدك أنت ساندريللو، بل أقصدنا نحن إذ أنهم سحبوا منّا كل النور الذي كان يشعل أملنا بالتوهج للإيمان بأن ثمة ما هو آت ويكون الأفضل.. سحبوا منّا معه حتى لون السماء فبات أسوداً بدخانهم والأخضر اقتنصوه مع اقتناصهم للسلام... وأهدونا بدلاً منه مسميات عاجزة عن تفسير لونها.. يحضرني الآن مثلاً ذاك الاسم للأخضر البراهيمي مع خطته للسلام بعد سابقه كوفي عنان.. وكنا ننتظر الكثير أنان بمقترحاته الستة التي لم تنجب بيضة سلام فما بالك بحمامة سلام مبعوث الأمم المتحدة والجامعة العربية لسورية كوفي أنان قدم يومها دراسة جادة عبر مقترحاته الستة في الالتزام بعملية وقف القتال والتعاون مع المبعوث الأممي في عملية سياسية تشمل كل الأطياف السورية مع شرط لتوقف تدفق تحركات القوات المسلحة باتجاه المناطق السكنية وإنهاء استخدام الأسلحة الثقيلة وضمان حرية الصحافة وحرية التجمع وتكثيف عمليات الإفراج عن الناشطين السلميين، وبالتالي تهدئة الوضع المتأزم بين الأطراف

المتنازعة لكن لم تثمر خطته عن النجاح المرتقب في التفاوضات وكان أن قدم خلفه ونظيره الأخضر الابراهيمي الذي كانت الأنظار عليه لتحقيق ما فشل سلفه بالفوز به... لكن الحال سيان لم يكن لرمزية اسمه ما يساعد فعلاً في نشر السلم في منطقتنا .. ليس الأمر مجرد بنود بل رغبة حقيقية من الطرفين بإنهاء النزاع والحرب القائمة .فوزه بجائزة واتيلر للسلام لم يكن معناها أنه استطاع بل حاول...

استقال كوفي عنان لعجزه بعد محاولته وقف إطلاق النار ولم يكن لما تلاه من الابراهيمي نجاحاً أكبر إذ استمرت الأمور على ما هي عليه.. ما قبل الاتفاقيات ابحث عن الاتفاقيات المسبوقة والمعدة سابقاً.

عزيزي ساندريللو الستائر لا تكون دوبلكس فقط بل غالباً ستائر الغرف السياسية تربليكس.. لتخفي شمس الحقيقة الواهجة

حين تكون المحادثات بين الروس والصينيين والمسؤولين السوريين تكون الأمور بأيدي الأغراب وليس بأيدي أبناء الوطن الواحد.. فشلت محاولاته هو أيضاً وتخلى عن منصبه كمبعوث أممي للقضية السورية.

اللون الأخضر يذكرني بصندوق الدنيا الأخضر هذا الصندوق الخشبي الصغير الذي كان يحمله الحكواتي ويقص علينا من خلاله حكايا الزير سالم والشاطر حسن وست الحسن والجمال... كنا نرى الصور من كوات الصندوق وأصبح العالم يتناوب على رؤية صورنا من كوة التلفزة وأجهزة الكمبيوترات والموبايلات... صوراً دون بطولات.. ما من شاطر حسن ولا من الزير سالم... بل ربما باتت كوات تلك الشاشات مغطاة إما من دموع الناس أو من رذاذ أمواج البحر التي كانت تدفع بجثث اللاجئين الغرقى على الشواطئ الأوروبية.

الرسالة الثامنة عشر((18))

عزيزي ساندريللو

أعود إليك من جديد.. نافذتك على العالم كما تسميني.لا أعلم أي عالم أنقل إليك صورته.

اتفقنا أنا وأنت بأن أمسك بيدك، لأتنقل بك بين بوابات العالم، بين ماقد كان، وما هو كائن، وما قد يكون.

تريدني أن أستمر برسائلي إليك؟ وأريد أن أتابع شعوري بوجودك معي، وبوجودك أولاً بالحياة... مابين رسالة وأخرى أكون بغاية القلق بتساؤلي إن كنت موجوداً أم لا.

أعتذر عن قسوة الجملة التي كنت أنت السابق لها والتي تتركها دائماً مذيلة بآخر رسائلك مع توقيعك..

السجن. الاعتقال. الإخفاء. كل هذا نفهمه كلانا، نفهم معناه تماماً.

ساندريللو؛ الأمر هو كما إسدال ستارة سميكة وقاتمة على نافذة موصدة لتغيب معرفتنا بالوقت، بأن ثمة شمساً هنالك في الخارج تعلن عن أن الصباح تتابع وحقيقة، وأن الزمن ليس فقط ليل أو نهار، بل هو ذاك الدوران المتكامل.. كما لحلقة تلقى بالفراغ تدور وتدور، نراها قبل

أن تهوي، قد يتخلل النظر بعضاً من الخداع البصري تبعاً لفيزيائية الحركة، وأحياناً تبعاً لقوة نابذة تعيد إبعادها ومن ثم تقريبها، وهي هنا الشيء ذاته، إن أردنا اعتباره هو الحدث.. كل جزئيات الأحداث كما جزيئات الأشياء لها موقعها من حيث تراتبية زمنية معينة تكون مدروسة تماماً.. الكون لا يحكمه العبث... لكننا نحن من نحاول العبث معه ونفشل حين لا نفهم التاريـخ بصورته السليمة..

كما رحلة نشوء الحضارات والأمم بكل ما يمر بها من حالات ازدهار أو خفوت.. ابحث عن السبب دائماً والسبب لا يكون واحداً إطلاقاً.. يوجد ماهو دائماً طرفان أو نقطتان إحداهما داخلية وأخرى خارجية..

إن أردنا تشبيه أي من الأحداث تاريخياً نجد أنه كما لو كان يدور بحركة المكوك الذي يلعب به الأطفال حركته وعدد مرات دورانه تعود إلى نوعية مادته ومدى طاقة الرمية التي يدفع بها، وبالتالي حين تدخل أي يد لإيقافه، فهذه أيضاً نقطة تأثير خارجية...

أجد أن التشبيه مماثل لما كان يجري تاريخياً في كل أمة أو حضارة تبعاً لنقطة قوة داخلية ونوعية المكون البشري لها ومدى تماسكه، وبالتالي مايطرأ عليها من تغييرات حسب التدخلات الخارجية بها.

كل الكون متشابه بآلية تداعيه...

ساندريللو...

القوة الذاتية في صراع دائم مع المؤثرات الخارجية، سواء أكانت القوة الذاتية مجسدة بانسان أو بمادة على حسب مقاومتها، أو بمجتمع، أو أمة... يوجد دائماً مراكز للعطب، سواء داخلية كانت، أم خارجية.

ساندريللو..

أعلم أنك تبحث الآن عن لفافة دخان وأنك بحاجة ماسة لتزفر وأنت تدخن، أعرفك جيداً. تريدني أن أثرثر بالحديث معك وتحنق لأنك لا تستطيع مشاركتي الحوار مباشرة... ماذا نفعل؟ هي الأمور هكذا.

كنت اليوم أسير على غير هدى في شوارع المدينة... أستغل نور الشمس لأستطيع أن أتأمل حال البلد... تصور يا عزيزي الوضع مريع تماماً.. لا أعلم ربما بات كمشهد من مسرح اللامعقول.. قسمت المدينة إلى أقسام عجيبة والشارع النظيف الراقي بات مليئاً بالقمامة وأوراق الخس والخضروات العفنة وأكياس النايلون حتى أن قدمي زلقت وأنا أحاول المرور بين أكوام الناس الهائلة.. تصور على شجرة تجد لافتة تحمل كلمات «أبو عبدو للحلاقة» وتجد على الشجرة ذاتها مرآة وأمامها كرسي بلاستيكي مكسور ومتمايل، وقد جلس عليه أحدهم والحلاق يقوم بقص شعره، ومباشرة على الشجرة المجاورة؛ بما أن هذا الرصيف مشجر تجد خاروفاً معلقاً وقد أخذ اللحام بتقطيعه، وعلى الأرض ميزان وأشخاص محتشدون يبغون شراء حاجتهم من اللحم، وعلى بعد مترين تجد شجرة أخرى وقد كتب على لافتة معلقة عليها: «كومجي الأمان.. بيع وتغيير الإطارات» وبالقرب منه شخص آخر وأمامه بطاريات مولدات كهربائية ربما بعضها مسروق أيضاً فالسرقات أصبحت مورداً جديداً للبعض، للبعض وهكذا... العالم يضج بالقلق والخوف والفقر.

ساندريللو تضحكني وتبكيني بالآن ذاته حين تحدثني عن شجارك مع زميل غرفتك في سجنك... تتشاجران حول تحديد خطوط المساحات وتعودان للعب الشطرنج بعدها... كما الحال ذاته بما سأذكره لك الآن سوى أنكما شريكا هم واحد، وبالنسبة لتحديد الخطوط للغير فهذا يخضع لقانون النسبية.

رحم الله أينشتاين... ربما كان يلمح بشكل ما إلى السياسة أيضاً.. ربما!؟

هل تعتقد أنه كان خائفاً من التصريح مثلنا؟ ههه لا نعتقد...

عزيزي بالنسبة لترسيم الحدود ولتحديد نقاط الاشتباكات، وبالنسبة لما حدثتني به أيضاً من شجاراتك الدائمة مع زميل البهجة، أقصد غرفتك بالسجن كما تسميها دائماً، ولا تنسى أننا نتحدث بالنسبية ذكرتني بهذا عن زيارة نيكسون الأولى لسوريا مع وزير خارجيته الداهية هنري كيسينجر، حين أراد نيكسون توقيع اتفاق فصل القوات وأبدى حينها الرئيس الأمريكي عن عزمه في تطبيق الاتفاق بمقتضى القرارات الدولية الصادرة عن مجلس الأمن؛ بالانسحاب من كافة الأراضي المحتلة مما أثار حفيظة كيسينجر فقام بتدبير فضيحة (ووتر غيت) التي أودت برئاسته... عزيزي كان هذا في عام(1974) ومازالت الأمور تخضع للسلطة ذاتها ثمة عرف سياسي مدرك بالبداهة.. القوة والقرار لمن يملك السلطة الأعلى، بطريقة ما الأمور تشابه ذاك الضغط القائم دائماً من اللوبي اليهودي... خذها أنت من الناحية النسبية بكل أسف الشجار سيبقى قائماً بينك وبين صديق البهجة بما أن الموضوع ترسيم لحدود وفض لاشتباك...

انظر تلك النسبية والمقاربة ما بين الجزء والكل وحاول فهمها.

ساندريللو... المهم هو أنت

فتش بداخلك عن ذاتك، اقتنع بأنك إنسان... ليحق لك أن تطالب بما تستأهله إنسانيتك... فسحة من الهواء ربما؟

لا والله لا أسخر بل ربما هذا الآن من أضعف الإيمان، أن يطالب الإنسان به على الأقل ليصحح للمنظومة العالمية نظرتهم إلى دول العالم الثالث، فنحن بشر نعم كل منا إنسان وإن حاد الغير عن إنسانيتهم بات هذا الآن طلباً مشروعاً، ربما لم يكونوا يرونه مشروعاً من قبل.

كما البيادق وكما عرائس الماريونيت نحرك بخيطاننا، لكن؟
ألا يحلو لعرائس الماريونيت أن تجرب الرقص بعيداً عن خيطانها؟
فكر بهذا
كم صرخت بهم إياكم والثغاء؛ لا تدمنوه حتى لا تصبحوا خرفاناً حقيقة.
هو نوع من الشوق لأصواتنا، إذ يحدث أن نشتاق لصوتنا...دون ارتجاف
لرؤوسنا... دون التفاتة خوف لإنسانيتنا... المهمشة
ويحدث... .أن نشتاق للإحساس بكرامتنا.

الرسالة التاسعة عشر ((19))

عزيزي ساندريللو

كنت قلقة جداً عليك في الآونة الأخيرة حتى وصلتني رسالتك التي تخبرني بها عن تفاؤلك بإطلاق سراحك قريباً، نعم نعلم كلانا أن الصوت قد يكون طلقات من ريش أبيض تتفتح كما براعم زهور بيضاء في فضاء الحرية لتغزو السماء بآلاف من الطيور البيضاء تحلق كوشاح أمان وسلام.. لا تريد أكثر من هذا... وهل هنالك من لم يرغب بهذا ؟

عزيزي اعتبروك بوقاً قاذفاً للّهب في حين أنك لم تكن إلا داعي سلام ووعي وتنوير.

حين يكمم الفم يا ساندريللو من السذاجة أن تعتقد أنه بمجرد إزالة الكمامة سينطلق الصوت، ستفاجئ بأن الشفاه قد خيطت بخيوط الخوف، وأن الإبرة التي أخاطتها لا تزال موجودة مع الخيط على طرف الشفة، لا هي لم تقطع... لا تحملق بعينيك تعجباً... لم يقطعوه ذاك الخيط... لا.. خيط الرعب ذاك ما قطعوه، كأنهم أرادوا به صلة وجود حياتهم هم، كما لو كان حبل السرة الذي يتغذى منه الجنين، هم يتغذون على رعبنا وصمتنا وخوفنا.

ساندريللو هل تساءلت يوماً عن الفرق مابين البوق الناطق الحامل للصوت وما بين الصافرة؟

الحامل والقابض واحد هو الفاه... لكن؟ تساءل عن الفرق .. تساءل معي ياعزيزي ..

كثيرا ما كان يضحكني شكل الصافرة في طفولتي... كنت أشاهد تلك الكرة الصغيرة كيف تدور بداخلها أثناء التصفير... أنفاس تنفخ في ذاك الفراغ الصغير فتدور الكرة ويرتفع صوت الصفير..

أنفاس وكرة وصفير... وينتبه العالم كله... تكون اليقظة... والاستغراب... والترقب.. والتحفز

والآن. تتدافع الأنفاس وهي تزفر وتنفخ...

والكرة...؟ ماذا عن الكرة؟ في أي الملاعب تدور؟

بل في أي الفراغات؟... تلهث أنفاسنا لندفع بها؟

ليس هنالك من كوة فراغ صغيرة.. بل هو عالم بأكمله..!! أتراه هو السبب؟

لا صوت... رغم كل الحناجر

لا صوت... رغم كل الأنفاس... لا حياة.

والكرة..... ماتزال... تهرول.....

صافرة تنبيه كان يستخدمها الحراس الليليون للمطاردة... أذكر هذا في طفولتي، أذكره تماماً... مثلما كنت أذكر مسلسل حكايا الليل... بذاك الشرطي وصديقه الزبال جامع القمامة... كانت الشرطة حينها في

خدمة الشعب، كنت أرى هذا من تآلف هذان الاثنان ومودتهما بعيداً عن السلطوية، كنت أجده في تلك العلاقة الطيبة ما بين السلطة العليا وقاع المجتمع... تماهٍ بعيد عن الإرهاب.

حكايا... إصغاء... صوت وإصغاء... الآن لا صوت ولا إصغاء... عزيزي... علينا أن نفهم أن القواميس ستختزل كلماتها، إذ أن الكثير من الكلمات ما عاد لها من جدوى في هذا العصر، رغم أنها مطلب حياتي مشروع وحق إنسان على الأقل يستطيع الإنسان ممارسة قراءته وفهم معناه، وهذا أضعف الإيمان.

ماذا عن الأجيال القادمة؟ ماذا عن الناشئة؟

هل ستمر أمامهم كلمات إن اضطروا لقراءتها في كتب قديمة، كلمات مثل: عدل، صوت، رحمة، حق... والكثير الكثير غيرها، هل ستتراءى لهم أنها كلمات من غير لغة؟ربما.

ليست الصافرة وحدها تلك التي كانت تطارد اللصوص والمجرمين بل ثمة صافرة أيضاً.. صافرة الحكم... الذي يعطي تنبيهات البداية والتحذير والطرد والنهاية.

ساندريللو؛ لم نمتلك الإرادة لنصمت.

الصوت رسول الإرادة .. فالعدل لا يتكلم همساً.

لكنها مساءلة الحياة عن اختفاء هذه الكلمة من قاموسها ولا غرابة في هذا، فقد قيل إن العدل هو الكلمة الوحيدة من أسماء الله الحسنى التي يجري البحث عنها في الحياة بين حشايا الإنسانية... ومازال البحث قائماً حتى الآن.

ربما علينا أن نبحث عنها في زمن النسبيات حيث للأمور أيضاً موازينها.

في كفتي ميزان من قش جثم العدل على حطام الإنسان...

قالوا يومها إن العدل أثقل من أن تحمله كفة ميزان، ربما لهذا.. ربما.

حزين أنت لسجنك... أن تسجن الثقافة بين ذات الجدران التي تضم الإجرام؛ هو الإجرام بعينه... ألم أقل لك أنه ما من عدل؟

يضحكني أن يجيب أحدهم بأن الكل سواء في تطبيق العدالة.. ومن هنا تستطيع أن ترى المراوغة في موضوع القياس... ربما علينا هنا إعادة النظر بالنسبة إلى المفاهيم التي تُسْتغل وتُطوَّع حسب المصلحة الموجهة لهذا... هلا أفهموهم أن الشعوب البسيطة أيضاً... لها من العقل ما يجعلها تجيد التمييز؟

عزيزي ساندريللو

أغبى الحكومات تلك التي تغتال مثقفيها؛ لأن هذا كفيل بالتأكيد أكثر على جوهر الحقيقة.

يتغلغل الزمن في أوردة الذاكرة فينساب مع دمائنا بحرارة الانفعال تقتحمني رغماً عني أصوات غناء ولحن شجي وحزين... هي التداعيات بلا ريب يا ساندريللو... تداعيات تسدل على عالمنا الداخلي كوشاح شفاف ذو فراغات، نقترب منها بأنظار أرواحنا فتكون كما نوافذ على عوالم مررنا بمحاذاة بواباتها يوماً دون أن ندخل بها... قد يكون الآن هو زمن التروي فنتمهل وندخل إليها؛ لنرى أكثر، لنعلم أكثر، لنحيط بعالمنا فهماً له عبر علاقته بما مضى ونكون أقرب قرباً للاستدلال المعرفي، فالأمور الحالية باتت ساحة للعبث، علينا أن نحاول فك طلاسمها كما لو كانت خيوطاً متشابكة متداخلة في كرة صوفية واحدة

نحتاجها الآن بلا ريب أكثر من أي وقت مضى، العالم الآن جحيم ساعر ونشعر بارتجافنا في صقيع إنسانيته البائسة، كل الأمور متشابكة تحتاج إلى فض تشابكها، كما وفض الاشتباكات الحالية الذي ما زال يبدو أمراً شبه مستحيل.

عزيزي ساندريللو..

كنت قد نوهت لك عن تلك الأغنية الحزينة التي تداخلت مع تداعياتي...أذكرها الآن جيداً، كثيراً ما كانت تردد مع الخلفيات الموسيقية في أفلام الأبيض والأسود، وكذلك في مسلسلات التلفاز أيضاً مما يجعلها مرسخة تماماً في ذاكرتي الطفولية حين ذاك.

يازمان السجن خيّم
إننا نهوى الظلاما
ليس بعد الليل إلا
فجر مجد يتسامى

تساءلت كثيراً عن شاعر هذه القصيدة التي عاشت طويلاً معي، وكنت في كل مرة أسمعها أنتفض حزناً وألماً.. قد كانت من أوائل القصائد التي أشعلت بي حب الوطن، وأثّرت بتكويني الفكري والأدبي.. وفهمت من خلالها قيمة الكلمة ومدى تأثيرها على ضمير الشعوب والأمم...

ساندريللو... أنت الآن مثلي كما كنت سابقاً في فضول كبير لمعرفة قائل هذه الأبيات.

بالله عليك هل ما يهم هو القائل أو الحدث؟ أم الكلمة؟... المهم أن بعض الكلمات تصبح عالمية إنسانياً من خلال دورها في حدث ما ومن كونها حالة عامة تنطبق على كل زمان ومكان...

ساندريللو... حتى الآن ما يزال اللغط قائماً حول حقيقة شخصية قائلها، ما بين قائل إنها للشهيد محمد خليل أبو جمجوم قبل إعدامه في سجن عكا من قبل البريطانيين، ومن قائل آخر إنها لعبد الرحمن الشهبندر، وآخر ما استقر الرأي عليه أنها للأخ غير الشقيق للأديب نجيب الريس، وهو بدر الدين حامد المناضل السياسي القومي الذي كان يناضل ضد المستعمر الفرنسي بسوريا، وقد قال هذه الأبيات في سجنه بجزيرة أرواد.

آه يا ساندريللو... ألم تفهمها بعد أننا كشعوب عربية اتفقنا على أن لا نتفق، حتى وإن كان هذا بشأن معرفة الحقيقة لشاعر لقصيدة ..

ساندريللو... أحسست بجوع شديد الآن إذ أشم من نافذة المطبخ من بيت الجيران رائحة طهي المجدرة ورائحة البصل المقلي، على فكرة في الآونة الأخيرة أصبحت أشم هذه الرائحة في معظم البيوت... فالعدس والبرغل هما المادتان الأكثر توفراً حالياً في هذه الحرب اللعينة... أغلب الناس باتوا يعيشون على المساعدات التي تقدم من قبل الأمم المتحدة.. والمحزن أننا نجد على البسطات في أرصفة شوارعنا... سيدات وهن تحاولن بيع مخصصاتهن من هذه المساعدات لتستطعن شراء علب حليب الأطفال بدلاً منها... الوضع مؤلم وتعيس جداً يا ساندريللو...

طبعاً بغياب الكهرباء فلن أستطيع إيجاد ما أستطيع أكله من الثلاجة... نسيت أن أخبرك أن أغلب الناس باتوا يستخدمون الثلاجة الآن في حلب كخزانة يضعون فيها ما يريدون توضيبه من أغراضهم.. الوضع سيء للغاية ساندريللو.

أتركك الآن علي أن أتناول طعامي أعود إلى مراسلتك فيما بعد

الرسالة العشرون ((20))

8أكتوبر

عزيزي ساندريللو... أود أولاً الاطمئنان عن صحتك كيف هي أحوالك، بحثت لك بين كتبي عن كتابك المفضل من كتاب الأدب الروسي.. أردت أن أرسل لك المعطف لغوغول.. أخذت أبحث وأبحث مطولاً لم أجده... ربما قمت بإعارته سابقاً... أرتمي الآن متهالكة على مقعدي وأنا أحتسي قهوتي... سأحاول أن أجمع لك كتباً أخرى لإرسالها، أقلب نظري في المئات المكدسة من الكتب في مكتبتي وعلى الأرض وفي الصناديق.. أفكر بما شكلني منها على ما أنا عليه الآن، وكأن لكل كتاب منها غرسة في خلاياي... أي تركيبة عجيبة نكونها ياصديقي؟ في مخبر الكتب والأفكار؟ كم من العمليات والبحوث الفكرية تعالج بها أنسجة دماغنا السنجابية لنكون على ما نحن به؟ وكأنها مقادير من عناصر كيميائية تضاف وتضاف بكميات أقل أو أكثر ليخرج هذا الكائن الذي هو نحن على هذه الشاكلة؟ شيء من زولا مع بعض من طاغور وبعض من مورافيا الكثير من ويلسون وشتاينبك وشيكسبير يتغلغل ديكارت وبندس روسو وساغان وسارتر وديبوفوار ونهرو والعديد العديد من الكتب الفلسفية والدواوين الشعرية في العصر الجاهلي والأموي والفاطمي وماإلى غيرها هل تعلم أنني أشبه هذا التركيب إلى سطح زجاجي للوحة ميكروسكوب تجسد تحتها عالماً عجائبياً من الدهشة؟.. أو على العكس من ذلك تعرف بلا شك تلك اللوحات الحديثة التنقيطية المعتمدة على آلاف النقاط الملونة فلا تستطيع

أن تحدد أي لون تنتمي إليه لا تستطيع مثلاً أن تقول تلك اللوحة الزرقاء أو الحمراء لأن الأمر أكثر تعقيداً بكثير على أن يحدد بلون أو سمة... هذا الغزو الثقافي يتغلغل ويمتد في أدق أجزائنا في أدمغتنا وأرواحنا، فيسيطر ويهيمن ويحرك كل خطوط توجهاتنا... الحرف هو العنصر الفاعل الفعال في كل تصرفاتنا... أعني بهذا الإنسان القارئ وبشكل أو آخر كل منا قارئ.. ربما تجد أن البعض قراءاته لم تكن عبر كتب ثقافية فكرية، بل عبر كتب دينية فقط؛ فيكون تفكيره وخط سيره وتوجهه عبر مسارات محددة ضمن هذا التوجه؛ مما يشكل شخصيته على هذا الأساس وبعضهم عبر الإدمان على نمط معين من قراءات فكرية أخرى، أذكر الآن صديقي غسان كان زميلي في الجامعة كان مدمناً على قراءة الأدب الروسي بنهم شديد حتى تماهى كلياً مع أجواء الدراسات الشيوعية الموجهة ذاك الحين عبر تلك الكتب كنا نطلق عليه اسم غسانوف الشيوعي، أذكر تمسكه بالأفكار الشيوعية وإخلاصه لها ومداعبته لي بمناداتي بالبورجوازية، كنا صديقين مقربين يجمعنا حبنا للأدب وبحثنا عن هويتنا الخاصة بما يفيد لفهمنا لماهية انتماءاتنا... لم نكن نعلم بعد إلى ماذا ننتمي، على فكرة لطالما تحدثنا عن معطف غوغول وكان غسانوف معتداً هو الآخر بمعطفه الأسود الطويل. أذكر حينما دخل ذات يوم إلى المدرج حاملاً كتبه متبختراً بزهو يشوبه بعض الخجل بمعطفه الأسود.. يومها اقترب مني وهمس لي: _ربما لا تعرفينها، بل أنا متأكد من هذا أيتها البورجوازية المدللة، لكن بها الكثير من المعاطف. حين أجبته باستغراب أنني لم أفهم مايقصد شد من قوامه وضرب بأصابعه بتحد على الدرج الذي كنت أجلس عليه وقال بصوت عالي: احفظيه جيداً... اسمها البالة هي ما يستر الشباب أمثالي.. أغلب شبابنا هنا يرتدون من البالة.. فقراء الريف والبسطاء من أبناء الموظفين كلنا نرتدي ملابسنا من البالة.. طبعاً أبناء الطبقات البورجوازية لا يشعرون بنا، الحل هو بالشيوعية... الوحدة والحرية والاشتراكية مجرد شعارات سترون أنها وهمية خلبية، عليكم بفهم الشيوعية هي المفهوم النبيل لخلق الإنسان بصيغته العادلة..

ساندريللو كان لتلك الكتب كما كنت قد أسلفت لك تأثيرها العميق على أفكارنا وتكويننا كنا مازلنا بمرحلة الثمانينيات ولما تكن الشيوعية قد سقطت بعد، ولطالما كانت الأجيال اليافعة في حالة بحث دؤوب عن جوهر القيم والمثل العليا كان للكلمات بريقها ذاك الحين... كلمات ربما خضعت الآن لنسبية التفسير حتى أن بعضها ربما قد صنف ضمن الكلمات المستبعدة من قواميسنا المعرفية المعاصرة.

ساندريللو لنأخذ مثلاً كلمة المساواة أو العدل؟ ستجد أن لها مفهوماً مغايراً تماماً عما كان يطمح إليه جيل الثمانينات وماقبله بل ربما حتى قاربت على الانقراض. كان مايزال للحزب الشيوعي السوفييتي سطوته في روسيا حتى عام 1990 بما أنه الحزب المؤسس والحاكم ولا ننسى هيمنة الدولة كسلطة عليا على القطاع الثقافي، وغزارة الإنتاج الأدبي الخاضع لمقص الرقابة الفكرية.. كان لهذا الغزو الفكري دوره الحقيقي في تكوين قناعات شبابية تبحث باندفاع عن تأكيد على نضجها عبر اعتناق ماتنتخبه من أفكار موائمة لتطلعاتها.

ساندريللو حين أفكر الآن بمدى التقارب والتغلغل للوجود الروسي في بلادنا؛ أدرك مهارتهم في غرس جذورهم منذ قديم الزمن لتمتد وتتشعب في منطقتنا العربية هيمنة كاملة ومدروسة للمعسكر الشرقي، ليس فقط في سوريا بل بالكثير من الدول العربية زرع للخبراء السوفييت في مصر مثلاً: منذ عهد الرئيس جمال عبد الناصر والغريب في الأمر أن ثمة مفارقات في المواقف التي كانت مناهضة للشيوعية في ذاك الزمن وبين تقبل تواجد الخبراء التابعين لنظام الدولة نفسها..

في أيام الوحدة العربية بين مصر وسورية ألقي القبض على الكثيرين من طلاب الجامعات ومن الشباب المنتمين إلى هذا التنظيم الشيوعي في سوريا، وأقسروا على كتابة اعتراف بتنصلهم من هذا الانتماء وبانسحابهم منه وذلك على الصحف التي كانت تصدر في حينه.. مازلت أذكر أوراق الصحف المهترئة وأعمدة طويلة من الأسماء التي

تعلن انسحابها. وطالما كانت العلاقات قائمة بين هذه البلاد فكيف كان التضارب مابين السياسات والتوافق بالحين ذاته؟ تبقى السياسة عالماً غامضاً أقرب إلى العالم الغيبي غير المدرك. ساندريللو حين يعيد التاريخ نفسه كما لو كنت تشاهد برنامجاً تلفيزيونياً مرة مترجماً، وأخرى مدبلجاً للمحتوى ذاته... الربيع العربي.. أو الخريف الأوروبي وبداية الثورات الغربية التي أسقطت النظام الشيوعي.

من الملاحظ تتابع الثورات مع تغيير الإيديولوجيات عبر الزمن والحدث والتطورات الجيوسياسية فما كان قد سبق له البدء من أقوى ثورة مؤثرة في العالم وهي الثورة البلشفية التي كانت هي الأساس الذي أقامه فلاديمير لينين وقائد الجيش الأحمر ليون تروتسكي عام 1917 لتصبح أقوى سلطة وقوة شيوعية شكلت معها الاتحاد السوفييتي ليكون القوة العظمى المناوئة للمعسكر الغربي مالبثت أن أضعفته الثورات في أوروبا الشرقية فكان معها انتفاضة الخريف الأوروبي التي أطاحت بعظمة الاتحاد السوفييتي وأطاحت بالبلشفية.

الرسالة الواحدة والعشرون ((21))

عزيزي ساندريللو...

اشتقت إليك... نعم اشتقت إليك كثيراً... تضحك؟ نعم بإمكانك أن تضحك إذ تتمتم لنفسك متى كان بيننا لقاء ليحدث اشتياق؟ لا يهم أنا هكذا أشتاق حتى لما لم أره.. قد يكون التشوق؟ لكن لا. الفرق كبير بين الشوق والتشوق... تشوق الفضول.. يقولون إن للمرأة فضول الهرة...هههه لا أرى بنفسي تلك الهرة فأنا لا أتسلل ولا أنفث... لكن فضولي له أشكال أخرى له فضول البحث عن يقين... نعم أحتاج يقيناً ما يجعلني أشعر بثبات الأرض تحتي. أسعل الآن بشدة «هو الربو» أسعل بمتعة قد تصدم؛ أي متعة لسعالي؟ هي متعة الإحساس بمذاق الزمن... نعم... أمامي أقلام من الطبشور الأبيض والزهري والأصفر والأزرق، والكثير الكثير من نثارة اختلطت جزيئاتها في قاع الصندوق الخشبي.. آه منك ساندريللو تتعبني دائماً وتجعلني أبحث لك في صناديقي القديمة عن كتب أرسلها لك.. مكتبتي قد فاضت بالكتب حتى أنني كدست الكثير من الكتب القديمة في مكتبة أولادي وفي صناديق رفعتها إلى السندرة. وما أدراك ما السندرة في بيت لإنسانة مثلي... هي رحلة عذاب شاقة تخوضها وأنت مطأطئ الرأس بين أكوام الصناديق وألعاب الأطفال وأكوام الصحف والمجلات، تصور مازال لدي الكثير من مجلة العربي و الأسبوع العربي والسفير والمستقبل،

وكأنني أمتلك أرشيفاً كاملاً، لا أدري أية متعة كانت لدي بتكديس أشياء أحبها أعود إلى ما أبهجني علبة طبشور.. ذرات من حلم جميل طبشور ملون... وممسحة... وسبورة... كم تهادت على أناملنا ذرات بيضاء تعانق نقاء الطفولة كم تسابقنا لنمسح آثار كتابة سابقة على جدار أسود لننال حظوة عند مدرس أو مدرسة واللون الأحمر تراقص كفراشات أو علامات موسيقية مابين الفتحة أو الضمة أو الكسرة أو حلقة السكون والشدة كم تمايلت بانحناءات جميلة.... علب الطبشور... كم تراقصت سوقه بها وتراطمت في جيوبنا... قبل أن تمتد بها أيادينا الطفلة إلى المعلمة طبشور أبيض ورحلة اللون على السبورة... كم رسمت عليها شغبي وحلمي في الفرصة... كنت أنهال على سبورتي بشغفي وألتحم بها في حكايا لا تنتهي... صندوق الدنيا... كانت بالنسبة لي مساحات لا تنتهي... وذاك الحوار أحمل ذراته بأصابعي أداعب به وجنات صويحباتي بعض من أبيض على هذه... كفتيات الجيشا تبدو حينها وهي تشد على أجفانها بتقطيبات مضحكة وبعض من أحمر على أرنبة أنف الأخرى وأعلى خديها.. لتبدو كمهرج أحمق... ونتراكض على المقاعد بحمى راقصة وأصوات تصدح بأغاني ذاك الزمن... هو عرس الحوار الأبيض... وقطرات المطر تلسع النوافذ بالقبل... ليسود صمت مفاجئ بدخول مدرسة الفتوة المتشددة أو لنفاجأ بعمامة أستاذ الديانة... فنغوص في مقاعدنا مع إحساسنا بالذنب...!طبشور أبيض... ونقاء طبشور... كم سهل ما كان يكتبه... وكم صعب ما حفره في قلوبنا من ذكريات صعب أن تزول. هذا الصخر الرسوبي الأبيض بحبيباته الدقيقة الناعمة كم يخط علومنا وذكرياتنا.. ساندريللو تدري أننا كبلدان نامية كان اللوح الخشب الأسود مع طباشيره هو من أساسيات أساليب التعليم لدينا مع ذاك الحاسوب الخشبي الصغير ذو حبات الخرز الملونة..كثيرا ماكنت أتساءل عن هذه الكلمة الغريبة فتجيبني الجدة بأنها كلمة تركية. أمسك بالطبشور آخذ باستنشاقه وأبدأ بالسعال، أضغط بأصابعي على تلك النثارات وأحاول تذوقها.. هو الجنون ربما لكنني أريد الإحساس

بالإحساس حتى ترسيخه تماماً بداخلي... ما أقوم بفعله لا يمت بالبتة لمرض(بيكا) التي تدفع بعض المرضى إلى تذوق ما هو ضار بالصحة من مواد غريبة وكذلك الإدمان عليها، لا قطعاً هو ليس كذلك بل هو نوع من مزاجية التمرد الصاخب على واقع نفتقد فيه دفأه.. أقف أمام المرآة وأنا أمرر لون الطبشور الوردي على شفتي... آخذ لوحاً آخراً بلون أزرق أضعه على جفوني وأبيض على وجنتي وأمسح عليهما بشكل دائري باللون الأحمر... أضحك بشدة... (البلياتشو) لم أحتج إلى رسم دمعة فقد انسابت تلقائياً على وجهي وأخذت تمسح بطريقها كل الألوان التي مرغت بها وجهي... سعال... ضحك... بكاء... حالة غريبة... ماذا أفعل هنا بهذه الغرفة المهجورة بصناديقها... هس.هس لاتجيبني، أكاد اسمع صوتك ساندريللو تطالبني بأن أهدأ وأخرج من الغرفة... ألا أستطيع أنا أرتجف بشدة... أرتجف... فكل ما أمر به هو جنوني للغاية... اختزال الزمن بقلم طبشور... هل أنت مدرك لهذا؟ كل الأحداث تلامسنا بحين حدوثها حتى العمق ليبقى انعكاس ظلها بين امتداد خط زاوية الانعكاس على قدر امتداد الزمن وعلى قدر تواريه عبر مسافة البعد الزمني فلا يبقى منه سوى نثارة من مسحوق أبيض على أطراف أصابعنا يكفي أن نفركها وننفخ عليها لتختفي. هل يختفي الحدث فعلاً يا ساندريللو عبر هذا الامتداد؟ هل هو كما هذه النثارة التي انطبعت على أصابعي وعلى ذاكرتي لتمضي؟

ساندريللو... الجواب قطعاً لا.. بعض الأحداث خلقت لتحفر بنا جروحاً وتغرس نصالها بنا كما غرس الأعلام الغريبة على أراضينا الآن.. بعض الأحداث خلقت وشكلت لتمتد كما بقعة حبر تلوث ما سقطت عليه... حبر من نوع الحبر الذي بداخل أقلام البايلوت أو البيك الجافة إن كنت تذكرها أيام الدراسة... حين تنطلق من القلم لتصبح بقعة قبيحة على ملابسنا أو دفاترنا كنا نقول حينها بأسف: «فار الحبر من القلم»: يعني حالة من الفوران... هكذا كان تعبيرنا الطفولي.. هو بحقيقة الأمر نوع

من الفوران الحدثي حين يحصل غزو أو اتفاقيات سياسية ما نفقد على أثرها بقعاً من أراضينا، وهذا ألعن ألف مرة من حرب واضحة... آه يا ساندريللو العزيز.. الطبشور لا يطاله العفن هل تدرك هذا يا ساندريللو؟

كتابة آنية. تلاشي لحالة ما. قد تكون درساً علمياً على سبورة وقد تكون حصة للأدب العربي أيضاً فتشكل الكلمات بما يقدم لها من ألوان... قد يبقى بعض الأبيات عالقاً بالذاكرة، أقول قد، ربما.. هذا ما كان ينجح الأساتذة به التلقين.. نحن شعب تعودنا على التلقين... تعودنا على الترديد... مرغمين أو مسلوبين أو مخدوعين... تعودنا على ترديد شعارات افترضناها يوماً حقيقية لا خلبية... شعوب مُوَجَّهة نسير بغريزة القطيع بثقة عمياء أن هذا هو المفترض... حسناً العفن لا يطال الطبشور لا يطاله... مازالت ذاكرة فطرتنا الأولى وطفولتنا عالقة على ذراته.. براءة الإيمان.. أما آمنّا يوماً بأن بترول العرب للعرب؟ أما كنا نعتقد بثلاثية قداسة حبات الطوق المعقود على رقابنا كنا نتلمسها بفخر ساذج وحدة حرية اشتراكية... وما إلى ما هنالك.

أعتقد أنها كانت عروبة عروبة بعث.. أية عروبة وأي بعث؟ هل كان إلا مدفنا للإرادة وأية عروبة وهي المجللة بأردية من يوجهها؟ والوحدة؟ والحرية والاشتراكية؟ باتت كلمات مسلية ربما يجمعها فقط حرف واحد مع العروبة وهي التاء المربوطة كما الرباط الذي جثم على عيوننا وألسنتنا... كانت مجرد كلمات طوباوية... حين نأخذ أي كلمة منها نجدها رائعة كفكرة لكن مستحيلة كحقيقة... هل كانت طبيعتنا نحن كشعوب؟ هل كنا نحن أم قادتنا؟ أم ما هيمن علينا؟ أم ماذا؟ ساندريللو لنبحث عن العفن ماتحت ورق السيلوفان... حينها قد نفهم.. قد ندرك.. وربما نتدارك... كل الأمور تخضع لل(قد، وربما، لتصل إلى لعل) وتبقى النتيجة.. هي تلك البداهة المعلنة أن (لا يمكن).

الرسالة الثانية والعشرون ((22))

عزيزي ساندريللو...

أعود إليك من جديد.. بل ما غادرتكَ حقيقة... ثمة أمور لا تغادرنا... من بعضها: صوت الضمير؛ هذا البوق الجاهز ليحمل صوت أرواحنا قد تكون كلمة لماذا هي أكثر كلمة جاهزون نحن لإطلاقها.. عبر هذا البوق... هذا إن تجرأنا... هل نحن حقيقة جاهزون؟ هل نحن قادرون؟ أم أنها فقط تلك المراوحة ما بين الرغبة في الانعتاق، والخوف من التمزق عبر حناجرنا... نعم تمزق فهي مخرشة جارحة كما سلك محاط بشفرات... ولسنا بذاك الحاوي القادر على إخراجها... ليس الإبهار مانبغيه، لا قطعاً ليس هذا... أتساءل عن عمر هذه الكلمة عبر تاريخ البشرية... هل كان لها الوجود المكثف ذاته الذي نجده الآن؟ أم أنها تضخّمت وامتدت عبر الزمن، هل لها صوتها الصادح أم صوتها المخنوق المتحشرج؟ ربما الجواب يكمن بأنه بات عصر المنشار حتى حروف الكلمة تنشر وتقطع قبل أن تلتحم بصورة اسم استفهام.

أفكر الآن بصورتها الصوتية بعلم اللسانيات وبفقه اللغة:

"philologie et linguistique" ألاحظ هذا التروي حتى حين نطقها نتروى بالنطق وكأننا نهجئها، وكأنه علينا أن نتريث قبل لفظها... كل الأشياء لها دلالاتها النفسية، للسؤال جرأته،كما للجواب فهو الفعل والجواب "رد فعل" البدايات شجاعة انطلاق من صفر نتردد أحياناً

بوطئه، فما بالك بالوقوف عليه والانطلاق منه. ساندريللو هو الخوف ما قبل الاختيار وما قبل القرار، هي سمة شرق أوسطية ، كما السمرة واللون الأسود للعيون والشعر، كما الوجل، كما التحسب وكما الحذر. كثيراً ما يكون لهذه الكلمة إشكالية في تحديد نسبية الإجابة.. بعض الإجابات على هذه ال "لماذا" يكون صادماً للغاية... ربما هذا سبب آخر يخشى معه طرح السؤال.. ماذا إن كانت الأجوبة كما ذاك الرد الذي قام به الراعي الواشي بالثائر الكبير تشي غيفارا حين سأل لماذا قام بالوشاية عن مناضل أمضى حياته يناضل من أجل الشعوب المسكينة فأجاب لأن أصوات اشتباكات الطرفين الجنود والثوار كانت تخيف قطيعي..! ساندريللو هل فهمت ما أقصده؟ حق الحياة... حق تقرير المصير... حق الشعوب... حق عام، وقف أمامه حق العيش بمنطق الصالح الفردي سذاجة؟ ربما وربما جهل أيضاً أو ضعف أو يأس أو مصلحة... اسأل عن الوعي ساندريللو فرق كبير ما بين السؤال والتساؤل... التساؤل حوار عقلي مونولوج داخلي... يصطخب بداخلك يتلاطم مع إجاباتك الداخلية لذاتك. هو كما الكرة المرتدة تعود وتعود لتبقى بالحركة ذاتها.. كرة البينغ بونغ... استمرار آمن... والعديد من الإجابات الذاتية... لكن السؤال. السؤال. قد يكون هو "التابو" أسوأ السؤال هو ما بعد وعد بالأمان... تجده على منصات الخطابة، منصات السياسيين وكراسي الصحفيين وأصوات الحاضرين... مصيدة الأمان... كما وتلك الدودة المدلاة من قصبة صيد، ووعد بالوجبة لسمكة... تنطق بالفقاعات، قد، وأقول "قد" يعتبرون السؤال مجرد فقاعة... لكن بلاهة السمك لا تستطيع ابتلاع فقاعاتها... فهو قطعاً ليس كما التساؤل... يبتلع ويجتر... ويحرق الحنجرة والبلعوم كما القلس.. بعض الأسئلة لها حموضة عالية... علينا الحذر ساندريللو... ربما لهذا اكتفينا بالتساؤل... وما عدنا نسأل .. لكن؟! ألا يحق لنا أن نسأل عن أي انتصارات توهمناها؟ ونحن الخاسر الأكبر لأراضينا كلمة لماذا.. مرمية بقاع صندوق أسود جيد الإغلاق يقولون إن الصندوق الأسود يحمل معه كل الإجابات... لكن صدقني طمرناه هناك بعيداً مع كلمة لماذا.

"لماذا" هي كلمة تتلاطم مع كل الإجابات في صندوق أسود... نحن قوم نجيد الاختباء، نتصندق مع تساؤلنا وأسئلتنا وإجاباتنا، ونقفل صندوقنا علينا، ونكون قد رمينا بالمفتاح بعيداً؛ لأننا ببساطة: نخاف... نخاف أن ندرك، نخاف أن نعلم، نخاف أن نقوم بأي رد فعل. والسؤال لماذا نخاف... أم هي لامبالاة؟ ساندريللو حين أحرق المسجد الأقصى عام 1969 لم ينتفض العرب المسلمون كما كان من المفترض... إلا أن الخوف الأكبر كان من جانب غولدا مائير التي كانت حينها رئيسة وزراء اسرائيل أذكر قولها الشهير: لم أستطع النوم في تلك الليلة، كنت خائفة من رد فعل المسلمين العرب، لكن حين لم يتحركوا أصبحت واثقة أنهم في سبات .هذا يعني أن الخوف حالة متكافئة في كلا الجانبين لدى مواجهة حدث ما، وهذا يعني أن للعدو نقاط ضعفه وحين يعرف أحد الخصمان أن الخصم الآخر ليس بذاك القاهر الأبدي الذي لا يقهر فلم نختار نحن جانب الخوف بقناعة تامة؟ الخوف من بعبع لا يهزم؟ ربما حدْتُ قليلاً عما كنت أحدثك عنه وهو ال "لماذا" لكنها تبقى أيضاً ضمن سياق الموضوع فلنرفض أن يكون الجواب عبر بديهيات الثقة بالعجز. تكريس الشعور هو ما يوصل بالقناعة إلى الترسيخ وبالتالي يثبت العجز كحالة مستدامة تتحول إلى حقيقة ثابتة...

آه يا ساندريللو ..مشكلتي أن أصابعي ثرثارة... تناوش في الحدث... وتعاند الصمت. أكتب الآن بسرعة فأصابعي تصاب بنوبة هيستيرية وتتناغم مع ما كان من أيام التدريب العسكري بالفتوة: استعد... استرح... إلى الأمام سر... إلى الوراء دُرْ... مكانك راوح... أصابعي لا تستطيع أن تغفل هذه الكلمات كتابة... فبكل بساطة... هذا... تاريخ... شعب يملى عليه... يضحكني أننا لم نفهمها سابقاً... كنا أول شعب "روبوت" في العالم... وما زلنا... وبكل أسف... س ...

وسوف... اصمتي يا أصابعي... تضحك تلك اللعينة أصابعي... وتمضي في عبثها "المعقلن"... بعيداً عن "الروبوته" هكذا نحن أو هكذا ما اعتادناه، إلا من أفاق وفهم. نحن شعوب تعشق الظلمة..

تحمل مخارزها بأيديها.. تفقأ أعينها حتى لا تؤلمها الأنوار، نظاراتنا السوداء جاهزة دائماً لنمشي عكس الغد... نخشى التعثر بالأمل. نمسك بالقوس والرمح ونخشى التقدم. التضخيم في كل شيء هو علة العلل، الازدواجية والادعاء. عيوبنا كثيرة البروز فالنكوص والاختباء لم يعد مهماً أن يباع المسيح بعشرين قطعة فضية أو ذهبية لم يعد مهماً أن يباع من قبل يهوذا أو غيره، الأشياء والأشخاص والمسميات كل هذا قابل للتغيير، والمعنى واحد أن تحاول أن ترمي بريش أبيض على من يقترب مكشرا منك... شيء من اللامعقولية لكنني أغرق بها بهدوء حتى الأعمق، ولا أفهم سر هذا كأن يتحلق المشاهدون عكس ساحة المدرجات.. كأن يكون التصفيق بانحناءة تحت الكراسي.. كمن يلقي بمكعب من فولاذ يريد أن يلاعبه ككرة... تعبت يا ساندريللو... عليّ أن أذهب إلى صاحب المولدة الكهربائية هو موعد القسط الشهري مجبرون نحن على الاستعانة بالمولدات الكهربائية... صدقني اللعبة مكشوفة من أكبر الشخصيات والمسؤولين وصولاً إلى أصحاب المولدات. الكل شريك... لا تسأل كيف.. لا تسأل "لماذا" تذكر أنه التابو الأعظم...

الرسالة الثالثة والعشرون ((23))

عزيزي ساندريللو...

أخيراً استطعت أن أنعم ببعض الهدوء لأستطيع الكتابة إليك، أصوات القذائف والاشتباكات لا تهدأ، وكأن السماء احتفالية للغضب. لا نستطيع أن نميز من أين تصدر القذائف.. المهم أن نقطة الوسط هي بيوت الأبرياء ومنطقة بيتي معرضة أكثر من غيرها، ولا أقصد طبعاً القسم القديم من المدينة فهو مستهدف دائماً، لكن الأمور هكذا ما بين فعل ورد فعل كل طرف يرد على الآخر بقصف لمايعتبره منطقته.. آه ساندريللو هذا الكابوس لا أظنه ينتهي، أصبحنا نتوجس خيفة من حالة الهدوء، نخشاه إلى درجة الهلع فلا نعلم أي من القوات قد تزحف إلينا وتداهمنا، هي العشوائية وهوجائية الغضب الأعمى التي تدفعهم إلى قتال عنيف، أحزن لأن كلا الطرفين هما أبناء وطن واحد، والمجندون ليسوا أيضاً بأصحاب قرار فهم مقسرون على أن يخوضوا حربا لم يختاروها، يحزنني هؤلاء الشبان الأغرار وأقصد أولئك الذين يؤدون خدمة العلم ويجدون أنفسهم بموقع القسر للقتال، وبالتالي للشهادة، هرب الكثير منهم بحياته ولا يلامون على هذا، الحياة تعاش لمرة واحدة ولماذا يقدمونها ثمناً لانتصار طرف أو آخر؟ حقيقة الأمر أن المستفيدين هم فقط أولئك المتربعون على عروش سلطتهم وأيضاً الطامعون بمناصب مستقبلية.. لك أن تفهم أن الشعب عنق يجز بسكين مثلوم.. المدنيون العزّل هم من يدفع الثمن الأكبر، البارحة

أصابت قذيفة المبنى المجاور لي فخسر رب الأسرة ابنه و ساقيه ومازال في المشفى. طوال الوقت نسمع صوت الانفجارات وأصوات تكسر الزجاج وتهاوي الحجر، الأمر جنوني للغاية،كثيراً ما ننظر إلى السماء، إلى الكتل الدخانية السوداء الكبيرة التي تغطيها بكثافة، ونحاول بحزن شديد أن نحزر أين كان هذا القصف وهذا الحريق؟ مابين القذائف المدفعية والصاروخية، وبين قذائف جرات الغاز على مبدأ كل يدلي بدلوه ماعدنا قادرين على التمييز، ثمة شيء واحد فقط نميزه من كل هذا، وهو أن ثمة حياة حقيقة في مكان آخر، فمتى ننعم نحن بها؟

ساندريللو تصور يا عزيزي مدى الشراسة التي باتت تحتل قلوب البعض، لكأنهم اعتادوا القتل ومنظر الدماء، وأقصد بهذا أولئك القناصة الذين يحلو لهم أن يقنصوا الأطفال، تلاميذ المدارس الابتدائية... يخشون مستقبلاً لبلدنا وكأنهم يريدون له الاندثار فقط.. أعلم أن الكثير من الأغراب باتوا في وطننا، قد يكونوا هم، لا أريد التفكير بأننا نحن من نفعل هذا ببعضنا البعض في الشراسة لا يمكن لحرمة القداسة أن توجد؛ قصفوا الجوامع بكثرة، أعداداً هائلة من الجوامع، ولم تخلُ الكنائس أيضاً من شرورهم، قصفوها أيضاً، الظواهر كثيراً ما تكون **خادأستغرب** حين يعتقد البعض أن المستهدف هو ترحيل المسيحيون، ولهذا تعرضت بعض كنائسهم، لكن الحقيقة أن الجوامع بناسها بالمصلين فيها هي الأكثر استهدافاً، بات يوم الجمعة يوماً كارثياً للمصلين في كل يوم جمعة وقت الصلاة يستهدفون الجوامع والمصلين فالموضوع ليس المقصود فيه ترحيل للمسيحيين لا أعلم كيف نبتت هذه الفكرة ومن الذي يروجها فالمستهدف هو سوريا كلها بكامل شعبها الذي يقسر على النزوح والتهجير. نعم الجوامع التي قصفت هي بالمئات، هذا ولا أتحدث عن الشهداء، إلا أن عدد الكنائس نسبة إلى الجوامع أقل بكثير وهي بطبيعة الحال أقل عدداً. بكل الأحوال قصف ما قصف منها بغض النظر عن نوع الطوائف التي تنتمي إليها من هنا تلاحظ أن الموضوع شامل، التدمير شامل، لا علاقة

له بطائفة أو مذهب. من الطبيعي أن لا أستطيع ذكر أسماء الجوامع التي هدمت فهي بالآلاف ربما، إلا أنه بإمكاني ذكر أسماء بعض من تلك الكنائس

- كنيسة الموارنة وكنيسة الروم كاثوليك في ساحة فرحات - كنيسة السيدة للروم الأورثوذكس وكنيسة الأربعين شهيد للأرمن الأورثوذكس في الجديدة عند سوق الصوف - كنيسة الأرمن الكاثوليك في التلل - الكنيسة الإنجيلية العربية بعوجة الكيالي- كنيسة السريان الكاثوليك لاريب أنك تستغرب كيف لي أن أذكرها كلها وأن أدونها هنا ساندريللو سأشرح لك كل شيء فعلى الرغم من الاختلافات الدينية إلا أن هذا لم يكن يمنعني من زيارتها والتمتع بجمالها العمراني، وبالأيقونات التاريخية المقدسة، ناهيك عن إيماني بأنها كلها سواء بالمساجد والمعابد فهي بيوت لله تعالى حيث تناشده أرواحنا طلباً للراحة والرحمة، نعم أنا مؤمنة بزمن بات الإلحاد من أبرز سماته، أنا أدون ما أدونه إذ أدون من خلاله صفحات من ذكريات مع صديقاتي المسيحيات إذ كنت أحضر معهن مناسباتهن الاجتماعية والدينية سواء من مناسبات العماد والمناولة الأولى أو الزواج أو التأبين، وكثيراً ما كنت أصحب أطفالي إليها في فترات أعياد الميلاد ورأس السنة وفي الشهر المريمي..كنت أعشق الهدوء وأشكال القناطر والأقواس، الخشب اللامع شديد النظافة الذي كان في المقاعد، كنت أحب صوت الخطوات الهادئة الحذرة التي تسير بتؤدة بين مقاعد المصلين.

ساندريللو أتعلم شيئاً ساندريللو؟ حين أذكر الكنائس أصغي بداخلي إلى رنين الأجراس.. جمال رخيم له بذخ الحضور... أنا مخلوقة تعشق الأناقة والجمال، ربما بدأ هذا معي حين كنت بطفولتي أبدأ أولى خطواتي في التمييز بين الألوان وتناغمها، وأيضاً بملاحظة أنواع النسيج مهما كان، ربما بدأت هذا منذ عمر الثالثة؛ تستغرب؟ كنت أعشق التول الأبيض الذي يحضن قطع حلوى الملبس الأزرق، أذكر أنني كنت أقربه من عيني وأحاول الرؤية من خلال فتحاته... كنت أجد بهذا عناقاً ما

بين القماش والعالم الخارجي.. ومعه بدأت أعشق كل قماش له هذا الشكل من الشفافية، شفافية البوح ومراودة النظر للواقع... لا أعلم إن كنت قد بدأت مع هذا أولى علاقتي بالفانتازيا أو حتى ابتدأ حبي للسيريالية... ههه نعم أنا أجد بهذا رابطاً كبيراً .آه ساندريللو أشاغب الآن معك قليلاً، ألم أقل لك أنني معك أنسى نفسي وأتوه بين حروفي وعوالمي؟ أتدري ساندريللو أشعر وكأنني أراقصك بين الكلمات مع موسيقاها أثمل بالذكرى العذبة، وحين تمر بخاطري آلام الواقع يبدو الأمر وكأنك تدوس على قدمي فأصرخ ألماً بصوت خافت... هكذا يبدو لي الأمر وأحياناً كما وأنني أسير عبر كلماتي لك بطريقة خطوط الزيك زاك ما بين الواقع أقصد الحاضر ومابين الماضي.. حسناً عزيزي كنت أحدثك عن انسحاري بأناقة وجمال الأقمشة لكن ما الذي دفعني لأن أقول لك هذا؟ آه يا إلهي هي التداعيات بلاريب.. كنا نتحدث عن الكنائس وذكرت لك حبي للتول الأبيض لكن ماكان بخاطري هو شيء آخر مختلف كلياً.. كنت أفكر بالفوال ذاك المنديل الأسود المخرم من الدانتيلا السوداء أو ربما قماش الغيبير الذي كانت ترتديه السيدات المسيحيات على رؤوسهن بكل أناقة وهن يدلفن إلى الكنائس... كنت أحب هذا المشهد الأنيق... وكثيراً ما كنت أجد المسنات منهن وقد وضعن أيديهن بقطعة من الفراء مفتوحة من الطرفين كان لها دور لقفازات الأنيقة أحببت تلك الجدات ذوات الشعر الرمادي المصفف بعناية تحت مناديل الدانتيل تلك... وكنت أربط بينها وبين مروحة والدتي الأندلسية المعطرة التي كانت ترفرف الدانتيللا من أطرافها... ألم أقل لك عصر الزمن الجميل، عصر الأناقة أكاد أستحضر رائحة ذاك العطر الفرنسي القديم الأنيق كان اسمه أربيج... المهم كما ترى ياعزيزي كان هذا هو حجاب للسيدات المسيحيات للاحتشام واحتراماً للكنيسة لم يكن مقتصراً على العجائز فقط بل على الجميع.. أذكر صديقة العائلة "أراكسي" كانت جارتنا وكنت أراها مع والدتها يوم الأحد في طريقها إلى الكنيسة وكان وشاح رأسها من اللون الأبيض وأحياناً من الأخضر إلا أن والدتها لم تكن لتغير من لون منديلها هو

الأسود دائماً.. وهكذا بدأ التصنيف الطفولي برأسي لرمز اللون... وبدأت معه مهابته للون الأسود كنت أشعر أمامه باحترام، وكذلك للمظلات السوداء... حينها كان من النادر أن نرى مظلات من لون آخر... كنت أستغرب أن يكون اسم المظلة "شمسية" وأن تحمل في المطر... أرأيت ساندريللو كيف يبدأ الطفل بتساؤلاته وبمحاكمته العقلية للأمور؟ من هنا أستطيع أن أقول لك فلسفتي عن الحياة واختزالها فقط بشارتين الأولى للتعجب "!" والثانية للاستفهام "؟" الحياة نبدؤها بعيون متأملة لكل ماحولها، تتأمل ما هو الغرابة بالنسبة إليها تحتاج لأن تفسره والذهن اليقظ يطرح تساؤلاته ليفهم، ليدرك، ليتدارك وهنا اللعب على دورينو بالتالي هو الاختيار ما بين رد الفعل السالب أو الموجب... من هنا القرار أن تبصر... تستغرب. أن تكون واقفاً بعجز أمام الاستغراب... تقف مسمراً أمام إشارة التعجب... فقط لا أكثر. من هنا تكون السلبية... اختيار السلبية لعدم التحرك أمام جهلنا ومواجهته، أما حين تكون إشارة الاستفهام شحذاً للذهن ومدعاة للتبصر والفهم والاستيعاب فمن هنا القرار بأن يكون الموقف إيجابياً... أن تسأل لتفهم... إشارة الاستفهام هي طلب لجواب فهي حالة إيجابية ليست كما إشارة التعجب الأبكم... هههه لا تترك تعجبك أبكماً يا ساندريللو... لك أن تسألني وسأجيبك.. أعلم أنني قد أطلت عليك...

الرسالة الرابعة والعشرون ((24))

عزيزي ساندريللو..

تتوالى كل الأفكار برأسي كما أرجوحة بلونين أبيض وأسود، تتعالى وتهوي بسرعة شديدة، حتى يتوه معها النظر ويختلط اللونان فلا يسيطر علي سوى وشاح رمادي ملقى على برزخ الزمان والمكان بغوغائية فريدة تكبلني بشلل لا أدري معه حالتي.

هي الصور ما تتوالى دون توقف، وكأنها تندفع بشدة لتهبط بعنف كما لو كنت أمدّ بيدي لأمسك بصندوق على رف علوي، فيقلب ويهوي منه كل ما حفظ بداخله على مر السنين.. العديد العديد من الأشياء المتراكمة المكدسة التي كنت غافلة عنها لزمن طويل... كل هذا يقفز إلى الذاكرة الآن... في الروضة بمدارس الراهبات حيث كانت طفولتي، تمر أمامَ عيني صور لصديقات الطفولة بمرحهن وضحكاتهن... مجرد صور للبراءة كل الأطفال يتشابهون بوجودهم الأولي... ربما نخلق على صورة واحدة من النقاء، ولا تلبث الحياة أن تفرزنا كشرائح اجتماعية لها تصنيفاتها الدينية والطبقية والسياسية، وتبقى الفطرة الأولى هي الأجمل بعيداً عن التشوه والتصنيف والتصنيع... تستغرب ساندريللو حين أقول لك تصنيع؟ نعم هي الأمور هكذا كما التصنيع، كما الصناعات التحويلية، لكن لن نفهم أبداً من هي الجهة العليا المسؤولة عنها.. هو نوع من نظام كوني نحن من ضمنه، ندور في مداراته.. كما لو كانت مجتمعاتنا لها مركزية الذرات وميكانيكا وحدة بناء المادة.. ابحث في

الوجود الإنساني عبر صميم تشكيله لمجتمعاته؛ تجد أن الوجود بدأ أولاً بوجوده كما الذرة كوحدة قائمة بحدِّ ذاتها، بتكوينها الإيجابي من بروتونات ونترونات كما لو أنني أريد تشبيهها بجسد وروح يشكلان معاً ما يسمى كائناً بشرياً فطريّاً لا يكتمل بمعزل عن المحيط والمؤثرات كالذرة تماماً لا تكتمل دون الكترونات سلبية تدور في فلكها كل من جزء وجزء من كل إلى ما أقصاه من حدود التماهي لتكوين التكوين الفعلي لماهية الإنسان... لا يوجد انسلاخ وكل يكون بنسبة تماماً بما يتطابق مع نسبية تركيب العناصر لتخرج إلى الوجود بالصيغة التي هي عليها. الإضافات والتأثيرات تكون ما هو كائن أمامنا...

ساندريللو.. ما كان يسحرني وأنا بمدينتنا حلب هو وجود العلاقات الوثيقة بين أصحاب كل الديانات.. والقوميات أيضاً ما زلت أذكر بحب وحنين حتى صديقاتي اليهوديات، صديقات المدرسة اللواتي هاجرن مع أسرهن، لم يكن الدين يوماً عائقاً أمام المحبة والصداقة، هاجر من هاجر وبقيت قلّة منهم متمسكة بالوجود في أرض اعتادت اعتبارها موطنها، الفرق كبير بين اليهودية كديانة والصهيونية ككيان بالنسبة إلينا بحلب مازال الآباء والأجداد يذكرون بمودة جيرانهم وأصدقاءهم اليهود، أكثرهم كان يقطن بحي الجميلية بحلب ومازالت بيوتهم محافظاً عليها تحت بند أملاك اليهود منعاً لسرقتها أو التصرف بها. مازلت أذكر ما كنت أراه من تجمع تلك النسوة في بيت صديقة لي بذاك الحي ومشاركتهن لها في لف ورق العنب أو فرم البقدونس لعمل التبولة... جمعتني معهن بعض الصباحات لشرب فنجان القهوة... غريبة هي الحياة بجمال تنوعها... أبرع الصاغة كانوا من اليهود تصور يا ساندريللو حتى الحلي الذهبية التي كانت رمزاً دينياً برعوا هم في صياغتها أذكر قطعة حلي مصاغة بشكل آية الكرسي مصاغة بشكل رائع كانت من عمل الصائغ اليهودي، كم آسف على فقدانها إذ سرقت ذات يوم من بيتي، مازلت أتساءل حتى اليوم كيف لم يردع تلك اليد من أن تسرق قطعة ذهبية تحمل كلمات الله تعالى..

آه ساندريللو.. كم نحن متناقضون، وكأن الكل مدعي. حسناً لأعود إلى ما كنت أحدثك عنه حتى اليوم كانوا أصحاب حرف كثيرة، ولم يكونوا يبخلون في تعليم هذه الحرفة لشبان إسلام أو مسيحيين وأرمن... إلا أنني أذكر قضية ذاك الجاسوس كوهين ر.. السياسة وحدها هي سيدة المصائب وكأنها تبث السموم في الجسد، طبيعي أننا لا نستطيع اعتبار اليهودي ككيان إنساني مستقل ومسالم باعتباراته ومعتقداته الدينية الدينية عدو لنا بل فقط حين يتجاوز الأمر ذلك إلى الصهيونية ككيان متعدٍّ وسالب للحقوق، لحق شعب في الحياة مع البقاء بأرضه دون اعتقالات وتدمير وترحيل الأمر مختلف كلياً، مازلت أذكر وجه الطفلة الفلسطينية عهد التميمي هذا الرمز النضالي للمقاومة الفلسطينية في رام الله، تلك الطفلة التي أضحت أيقونة القضية الفلسطينية... الأمر مختلف تماماً. حين يصمت الرجال ويتوعد الأطفال بالانتقام والكفاح. ساندريللو صدقني يا ساندريللو أن غضبة الأطفال مخيفة... فيها توعد جامح... حين يفهم الطفل الأبي معنى الحق.. على العالم أن يخشى غضبه. ربما الآن بدأت أفهم سبب قنصهم لأطفالنا وهم ذاهبون إلى مدارسهم بحلب... ينقمون على من يحمل بكفيه المستقبل ويخشون غضبة انتقامهم. كم يختلف الأمر الآن عما كان من قبل من علاقات جيرة ومحبة وعن كيان صهيوني بنزعته التوسعية هل تعلم ساندريللو كيف أنني حين أكتب إليك أصبح دفقاً من أفكار وذكريات عن الوطن على فكرة، بما أن الشيء بالشيء يذكر، ربما لا تعلم أن أقدم كنيست يهودي بالتاريـخ موجود في قرية تادف قرب حلب، هذا المعبد يعد الأول بالنسبة إلى اليهود ومنه صدرت أول توراة بالعالم والكنيس اليهودي الأول كذلك تجده بدمشق الغريب أنه رغم التعدي على المساجد والكنائس إلا أن هذين الركنين الدينيين لم يمسهما الضرر في هذه الحرب بسوريا... !!!! ربما علينا التساؤل أكثر، ألم يجدر بهم أولاً حمايتنا نحن وحماية مقدساتنا بدلاً من الهزل الشنيع الذي يبرر به الإيرانيون سبب تواجدهم هم لدينا وهو حماية مقدساتهم.. بخلاصة الأمر. العالم أفعى برأسين... تجيدا اللدغ بمكر ومهارة.. أدعوك لأن

تفكر معي عما أقصده.. ساندريللو هذه الحرب اللعينة جعلت العالم يتنبه إلى فئة كانت مغيبة على الساحة السياسية والاجتماعية، جعلتنا نتساءل أكثر عن هذه الفئة الأزيدية التي نالت القسم الأوفر من فظائع الحرب من حيث القتل والسبي والتشريد والإعدامات الجماعية...

لا أعلم ما شأن الناس ببعضهم البعض حين يتعلق الأمر بالدين والمعتقد... الأمر فظيع للغاية يجعلنا نعود إلى أيام الحرب الأهلية بلبنان والقتل على أساس الهوية... آه ساندريللو... لا داعي لتنميق الكلمات والدوران حولها... كل ما حدث وما يحدث مقرف ومقزز للغاية... حين تتشوه الإنسانية لتصبح بشكل ذباب أزرق يحوم حول جثث القتلى... لا أظن أننا إن وضعنا على رؤوس أنوفنا قطرات من العطور الباريسية أننا نتغافل عن رائحة النتانة والقتل. فقط لنفكر كيف كان لهم أن بمعرفتهم لبنيتنا وتركيبتنا الاجتماعية أن يضعونا تحت المجهر، ويقوموا بحقننا بفيروسات وبكتيريات الكره والحقد والسادية لنستطيع القيام بكل هذه الفظائع. حين أفكر بتلك الأيدي المغلفة بالقفازات التي تأتي بشعوب كما لو شرائح من جسد صغير تفحص خلاياه وحمضه وتكوينه لفهم مابه ولحقنه بما يجعل تلك الخلايا بحالة ثورة وهيجان لتبدأ بأكل بعضها البعض.. هذا ما فعلوه.. درسوا بنيتنا واستعانوا بموافقة زبانيتهم (حماتنا) على قتلنا... لا أعلم بم كانوا يفكرون.. برأيك هل أرادوا استبدالنا؟ أم فقط التخلص من الكثافة السكانية؟

أكتب إليك وأنا أراقب تدفق الحروف السوداء على الورق الأبيض.. أسود وأبيض أو أبيض وأسود... ههه لا لست أهذي بل أنا أتعمد تماماً ما أقوله بل وإنني أعنيه بكل ثقة.. أعلم أن مادية الأشكال تفرض حيثياتها من حيث توجيه الأمور، فالورق لطالما كان أبيضاً منذ بداية تصنيعه ومعالجته صباغياً ليبدو بهذه النصاعة بكل الأحوال يتم تصنيعه من مادة السيليلوز الأساسية، وهي عديمة اللون لذا تعكس اللون الأبيض وددت أن أعلم متى كانت بداية تصنيعه فوجدت أنها

كانت من قبل الصينيين بداية القرن الثاني الميلادي. هل ترى منذ متى كان اهتمامهم بتوصيل المعرفة؟ أراك وأنت تبتسم قائلاً تعود من جديد للإسهاب وتريد التصحيح بأنها كانت اكتشاف فرعوني. أنا أرى الأهمية تكمن في كيفية تطويره حتى بات في متناول يد الجميع.. عزيزي ساندريللو بالنسبة إلى الإسهاب سأجيبك: هل نملك نحن إلا تمييع الزمن؟ ما الذي قدمناه للزمن... لا تضحكني أرجوك بذكر أسماء علمائنا الذين اتضح أنهم لا ينتمون إلينا إلا بشرقيتهم وليس بعروبتهم أغلبهم من الفرس وهذه حقيقة، لا لست منحازة إلى الفرس أو الروم بل لست منحازة ولا لأي شيء فأنا مجرد مخلوق منكب على دراسة الحقائق.. أوه اعذرني كما أني أحيد عما أبدأ الحديث به لكن صدقني ستجد أن كل الأمور ستكون مترابطة، فقط عليك بالتريث لتفهمني أكثر .. عليك بسيجارة جديدة... اعذرني لم أقلها بالعربية (لفافة تبغ) ما الجدوى من ذلك الآن؟ الطابع الغربي غلب على كل مناحي الحياة فما بالك بتعريب لمصطلحات ألفنا استخدامها. أضحك الآن بشدة وبمرارة أيضاً.. أذكر حين أبلغ أصحاب المحال التجارية بوجوب تعريب أسماء المحلات في الواجهات.. هذا ما نعرفه... تعريب الظاهر، الواجهات/ أسماء الشركات... مضحكون نحن إلى حدود التفاهة، عذراً لقولها... أم أننا شعوب مسكينة... أين إبداعاتنا أم أننا توقفنا عند ساعة شارلمان... أقصد ساعتنا التي خاف منها الملك شارلمان؟ متناقضون نحن إلى أقصى حدود التناقض نسهب ونميّع زمناً ونتسمر عند زمن آخر بالتواءات لأعناقنا مانزال نحاول السير وأعناقنا ملوية إلى ما قبل وجودنا، أقصد ولادتنا وكأننا ما ملكنا إلا ماضينا، في حين أننا بزمن السرعة أي تناقض هذا، نتسرع بكل شيء، بالحكم على الأمور، بالقرار، بالشجار، بالخلاف، ليس لدينا وقت لقراءة كتاب أو مقال علمي بالرغم من أنه زمن العلم، زمن الفعل لكننا ما زلنا متمسكين بزمن القول، نتباهى بشعر المديح والهجاء والتباهي... حسناً لم أعد أحب أن أكتب الشعر، أقول أكتب ولا أقول أقرض ..أنا أكتبه من أعماقي لكن؟ البعض يلوك في مفردات متداخلة مدّعياً الحداثة مجرد مفردات ترصف

بجانب بعضها بغاية الإبهار وفي حقيقة الأمر هي لا تشكل إلا صدمة للمتلقي .حين أفكر بالشعر أقول لنفسي ماجدواه الآن؟ رغم أني عُرفت كشاعرة لكن أجد أن التوجه إليه لم يعد يوقظ في النفوس أي نخوة في زمن الخلافات السياسية والحروب والأمراض... متمسكون نحن بأمجاد ولّتْ.. ساندريللو كنت قد قلت لك أمام لونين أسود وأبيض، أفكر كيف أننا نكتب بالأسود على الأبيض... رصاص رمادي أسود، حبر أزرق أسود... والصفحة بيضاء دائماً.. نخط ما نخطه من أفكار وأحداث بلون له صبغة التأكيد على صفحة الحياة البيضاء.. نخطُّ أفكاراً أو أحلاماً أو اعتراضات...

لا نستطيع أن نكتبها بالأبيض .. ربما لأن البياض يلوث بسرعة لأن أي لون على حروف بيضاء كفيل بتقطيعها وتشويهها... نحن كما الحروف نتهاوى على صفحة الحياة، نترابط بعلاقات إنسانية أو نتقاطع خطوطاً حمراء ترسمها الحروب والأحداث والمواقف.. نتحرك مع حروفنا ضمن دائرة الحدث قد نوغل فيه أو نجانبه.. المهم أن الحرف تابع لصاحبه له فعل ورد فعل. ساندريللو ما بين الإصغاء والخط ثمة فاصل زمني.. نقرر بعده الكتابة على الأبيض... نحن شعوب تجيد الإصغاء... تكتنزه وتجتر ماتسمعه مراراً وتكراراً وكثيراً مايكون هذا دون فهم.. قد يكون فقط للتندر قد تأخذه على محمل الفكاهة وتكتب وتكتب ساخرة دون أن تسبر حقيقة الكلمة دون أن تتوقف عندها لفهمها أكثر لفهم حيثياتها أسبابها وأهدافها... كيف ترمى الكلمة في ملعب السمع ليعاد قولبتها بشكل يرضي بعض الأهداف عند من يوجهون الكلمة بعد صدورها ويقومون بتفصيل أثواب لها يقررون لها متى تلبس ومتى تخلع... ساندريللو .. حاول أن تفهمني قطعاً أنا لست بصدد تقييم أو مؤازرة أو معاداة، بل فقط أحاول جمع أطراف ما كان قد يكون راية بيضاء ضلت طريقها نحو السماء فكانت مجرد قطعة قماش لم ير فيها الآخرون ما كان من الممكن تفاديه لو أنهم تمعنوا بالنظر إليها أكثر. أذكر مثلاً جملة حملت معها حيرة وتساؤلاً من القذافي جملة رددها

كثيراً وما وقف الناس عندها إلا للسخرية منها كان قد ألقى تساؤله سواء بقهر أو بيأس أو بإحباط وخوف أو ربما للتباهي وإظهار للعالم ضعف من يجابهوه... لكن هذه الجملة التي ألقاها وبقيت راسخة كما لو كانت إحدى الكليشيهات المضحكة التي بات يرددها الناس بسخرية حتى حياتهم اليومية باتت عبارة ببغائية الشكل لا أكثر. لكن لنأخذها الآن ونتمعن بها، لنعزلها إن شئنا عن قائلها، لنتأمل ونتمعن فيها كثيراً حقيقةً؛ من هم؟ أي قوى موجهة ومحركة لعالم كامل مازالت نتائجه مستمرة حتى الآن؟ساندريللو.. نحن ماتوقفنا كثيراً عند هذه الجملة لنفهمها، بل وكأننا كنا نلعب لعبة الكراسي فقط،كأننا أطفال كنا نتدافع لنفوز بالكراسي، أمام جمهور من المهللين السذج... لم نسمع إلى صوت قارعي الطبول.. كانوا يتسللون بصمت... ساندريللو في كل جملة نسمعها شقان مهمان للتبصر فيهما هذه ال(أنتم) مثلاً تدفعنا للتريث والوقوف طويلاً عندها... هي تلك ال(أنتم) الظاهرة وال (أنتم) الخفية... هي ضمير الغائب الذي يعني هم بصيغة ال (أنتم) هي ذاك الخطر الذي ما عرفنا إلى الآن تشعبه ومداه إلى أين من الممكن وصوله... هو الشعب الغاضب المسحوق وبالتالي المحرض الآخر له والاستفادة من توجهه للخلاص.كان في هذا إشارة للجميع.. للشعوب وللحكام... وللمستفيدين. ساندريللو... أشعر بإرهاق شديد هو الضغط المرتفع ربما من الجيد أنني مازلت أحتفظ ببعض من أدويتي ومن حسن الحظ أن تاريـخ الصلاحية لم ينته بعد، ليس بإمكاننا مغادرة بيوتنا وسط هذه الاشتباكات وأغلب الصيدليات مغلقة.. ومن الصعب الوصول إليها وسط هذه الحواجز والمتاريس المقامة في الشوارع... أووف كأنه صوت تحطم زجاج نافذة المطبخ...

اعذرني ساندريللو نتابع فيما بعد .

الرسالة الخامسة والعشرون ((25))

عزيزي ساندريللو..

أعود إليك بعد أن قمت بتجميع زجاج النافذة المكسور... نعم كما توقعت كان زجاج نافذة المطبخ.كما هي العادة عند دوي أي انفجار قريب يأخذ الزجاج بالتكسر... الوضع مزري للغاية تصور أن لا مجال للتحرك لا سيارت أو باصات يوجد نقص شديد في المحروقات وقد شلت الحركة في المدينة تماماً حتى المعامل ما عاد هنالك من مجال للعمل بها الكثير منها قد هدم والآخر مستولى عليه أو فككت آلاته ونقلت كقطع خردة إلى تركيا.. يوجد القليل من الورشات الصغيرة التي تحاول المقاومة بشق النفس شهدت إحدى هذه الورش وقد استخدمت أقبية المنازل لتستطيع تأمين إنتاجها، أقبية دون تهوية ودون إنارة لكنها مع هذا تطوّع الأمكنة لتصبح صالحة للعمل بها... أثبت الإنسان الحلبي قدرته على الصبر والتحمل والإبداع، ربما يعتبر من أمهر الحرفيين والصناعيين والتجار، أما بالنسبة لتأمين الأغذية فمازال الشعب صابراً ويحاول تأمين حاجياته عن طريق المعبر.. ربما تستغرب حين تسمع هذه الكلمة، نعم هو المعبر مكان أقرب ما يكون إلى يوم الحشر يتدافع فيه الآلاف من أهل المدينة؛ ليستطيعوا شراء موادهم الغذائية.. المواد مفقودة من الأسواق والحصول على الخبز أصبح من أكبر مشاكلنا..كانت ربطة الخبز الواحدة بعشرين ليرة ومنذ أيام أصبحت بخمسمئة كان يوماً جنونياً حين فقد الخبز ..لا يمكن أن

يتصور مخلوق ما نعانيه نحن الآن من لديه طحين يحاول أن يعجن الخبز في بيته هذا إن توفر عنده الغاز أو يحاول التعويض بأكلالأرز أو البرغل وما يتوفر عنده من مواد غذائية من المساعدات التي تقدمها الأمم المتحدة... المشكلة الحقيقية أيضاً في تأمين حليب الأطفال الرضع أصبح هذا شبه مستحيل بدأت الأمهات بإعطاء الرضع ماء الرز كبديل، وطبعاً لا يمكن أن يكون بديلاً. في عام 2013 وقد بدأ سعر الدولار بالارتفاع كثيراً، تصاعد لم يكن يتوقعه أحد... ارتفعت معه أسعار كل المواد؛ طبق البيض الذي كان قبل عام بستين ليرة، أصبح يباع بألف، والدخل المالي مازال كما هو، عدا أن ظروف العمل معدومة... المهم أنه عليَّ أن أشتري نايلون لتثبيته على الفراغ في النافذة... البرد شديد ولا يوجد وسائل تدفئة... المحزن أن الكثير من الأسر بدأت تستخدم الملابس القديمة والأحذية المطاطية والشحاطات البلاستيكية كبديل للوقود ومايثير الحزن أكثر هو اضطرار البعض لإحراق الخشب واقتطاع الأشجار بل وحتى التعدي على البيوت المهجورة من أصحابها والتي قصفت أو أحرقت لانتزاع الأبواب والنوافذ الخشبية منها وتكسيرها لاستخدامها في التدفئة. الحقيقة أن الوطن كله معروض للسرقة... السرقة من الغرب ومن الشرق ومن أبناء الوطن أنفسهم... الفقراء الأكثر تضرراً من حرب عاجزون أمامها.. تسرق حياتهم ولقمة عيشهم.. فيسرقون ما بإمكانه أن يدفئهم... صرخات جوع أطفالهم وعجائزهم أقوى من كل أصوات الصواريخ والجرات والمتفجرات. ساندريللو حتى أسلاك الكهرباء سرقت كانت تسحب من فجوات التمديدات الكهربائية وتعرى من البلاستيك لتباع بالكيلو كنحاس فقط. ساندريللو الآن بدأت أفهم الثورة الفرنسية أكثر، ثورة الغوغائيين الجياع، بغياب الوعي وحين تترك الشعوب في جهلها بإهمال اللامبالاة.. ستجد أن الفوضى هي ما يسود فقط... طبعاً الأيادي الغريبة عاثت فساداً بكل شيء وما هي بالأساس إلا ثلة من المرتزقة لا يهمها أمر البلد فهذه ليست بأوطانها ولكن؟ تساءل معي

عن تفسخ مجتمعات كاملة حين طالتها الفوضى.. لم يكن هنالك من أساس سليم ليتسنى له التماسك... هذا التفاوت الاجتماعي الهائل ابتلع معه الطبقة الوسطى الواعية المتعلمة والمثقفة التي كان بإمكانها أن تكون نقطة الاعتدال في وسط كيان يتهدم، المرتزقة الخارجيون والمرتزقة الداخليون وحماتهم... مازالوا إلى الآن يتناطحون بمنافسات وادعاءات ومزاودات وطنية للكسب الأكبر.

ببساطة... إنه مسرح اللامعقول كذباته مباحة... وطبيعي أكبر من أن تصدق أن تسأل عن؟ حلب... إنها مسرح اللامعقول رجم جمهوره قبل أن يتاح له التصفيق.

نتألم حين لا نقدر على العطاء.. لاشئ يكسرنا قدر مرارتنا... في عجزنا حين نود أن نمنح... ولا نقدر هو القهر... هو قهرنا فعلاً.. كل المناوشات لا تهدم إلانا نحن... شعب محكوم بأن يكون بين المطرقة والسندان... والانتصارات في أرضه إنما هي انتصارات عليه في نخب تمزيق جسده والتهامه... الحوار بين الأطراف... يمزق إنسانيتنا نحن فلينظروا بعيداً... بعيداً عن الحوار... ثمة جدار خدشته أظافر غاضبة أمام الجدار... ابتسامة نصر بلهاء.. وأي نصر وأي خسارة!وإن تسأل عن الأمس يجيبك اليوم... هذا ما ندفعه ثمناً لأمس من حقد كان متوارياً لعقود خلف ما كمن من توافق الطائفية والقوميات... الحقيقة ليست كما يدعونها.. فلا شفافية في الموضوع.. بل جدران من حقد مطلي بثخن الدماء التي تراكمت عبر الأزمنة، لكل قومية كانت هنا أسبابها ولكل طائفة ومذهب كان لديه أيضاً اعتراضاته على الأطراف الأخرى... حقائق لم تكن ظاهرة للعيان بدأت تظهر أكثر فأكثر مع الحرب واللجوء والنزوح والهجرة أصبح من العادي أن تظهر عدائية صراع الحضارات وأن تقاس الأهلية والأحقية بقدم الزمن من عقود وقرون وسنين ساندريللو..

لم أعد أخفي الحقيقة بإصبع الوهم أمام عيني، لست أنا فقط بهذا وحدي؛ بل بدأت الحقائق تتوالى وتتكشف.. كفاك من الإعلام الأملس. كفانا من مراوغة الذات... الحقائق باتت مكشوفة وأقبح بكثير من أن لا نخجل منها. يقولون لك: نسيج متضافر.. لوحة من فسيفساء المجتمعات المتجانسة. نعم كان هذا إلى حين... لكن كفانا خداعاً لأنفسنا.. هلّا تساءلنا عما يحدث هنا وهناك؟ هلّا تساءلنا عن التكتلات التي بدأت تظهر وكل منها يكيل الاتهامات للآخر؟ ليس هذا ذنب المواطن بجهله فقط لكن الذنب الأكبر حين لم يخضع الجميع إلى ذات المعاملة.. نعم كانت ظاهرياً فقط ولكن ماذا عن باطنها؟ بكل الأحوال يوجد من يحاول أن يغذي هذه التفرقة الآن بل ويشعلها لتتحول إلى حرب أهلية... بدأ التحريض ضمن الأقليات والطوائف ليحتدم النزاع أكثر فأكثر... ساندريللو نخلق جميعنا بذات المواصفات البشرية الإنسانية لكن تمييزنا من قبل المسؤولين عنا هو ما يزرع البغضاء خذ مثالاً على ذلك تفرقة الأهل لابن عن الآخر ومنحه امتيازات وصلاحيات أكثر من أخيه... ألا يخلق هذا شتاتاً ضمن الأسرة الواحدة؟ وكذلك ضمن الصف الواحد تمييز ابن المدير عن باقي رفاقه وابن المسؤول عن باقي الأفراد وصلاحيات مدير المؤسسة ومدير الجمعية أو رئيس النقابة وامتيازاته واستفادته من حيث موقعه حتى الطلبة في الجامعات فالحزبي لديه علامات أكثر تمنح له تساعده في اختياره لفرعه، وبالتالي فرص العمل لأعضاء الحزب وتفضيلهم لاكتساب الوظائف.. ورق السجائر الهش والشفاف تجده يغلف خيبتنا لنحترق بها كما السجائر... على فكرة حين اختفت المواد الغذائية كانت السجائر المهربة متوفرة وأكثر بكثير من قبل... فكر كيف تدخل وكيف تصل وتحمى؟ بالوقت الذي تقوم فيه الدوريات برفس عربات وسلال الطعام بالشوارع بحجة مخالفتها لشروط التواجد، كم آلمني منظر بائع عجوز وقد دفعوا عربته بأقدامهم، وما كان بعربته تهاوى تحت أقدام المهرولين، أسطال اللبن والبيض المحمي بالقش والموضوع بأوعية

من تنك.. فلاحون بسطاء يعتمدون على ما تنتجه حيواناتهم وكنا أحوج ما نكون إلى مايقدمونه، يعتبرونهم مرتزقة الطرقات ويسيئون إلى أناقة المدينة... وأي أناقة في زمن الحرب... هي عشوائيات الجهل والغباء ولم تعد مجرد عشوائيات الفوضى... هم مرتزقة؟ وماذا عن تواجد مرتزقة الدول الأخرى؟ ماذا عن مشاركتهم لنا في لقمة عيشنا وسكننا؟ حرب عصابات حقيقية.. بين اللامشروع والمشروع بحق الرد... ههه الاستعانة بصديق... كل طرف يستعين بصديق... السكين مثلوم والعنق جاهز للجز... عنق المواطن

ساندريللو.. لا.. لا شيء ساندريللو، ثمة أمور الغصة بها أقوى من أن نستطيع التحدث عنها... هل كان علينا أن يكون لدينا غاندي جديد؟ ربما نحتاج فكراً قادراً على فهم معنى السلام والإنسانية لكن! كل شيء كما لو كان مجرد همس بلا نفس هي أنسجتنا نغزل منها بواباتنا الخاصة... نمدها أمامنا، حواجز من دخان نسدله ستائراً، فلا يدرون أهو احتراقنا؟ أم بعثرة رماد لما كان؟!

الرسالة السادسة والعشرون ((26))

عزيزي ساندريللو..

هو الصباح الباكر والقهوة أولى طقوسه. أعشق القهوة.. ولاأتقن عملها... وكثيراً ما أتركها تحرق أصابعي، أشربها طوال الوقت وقبل النوم يدغدغ بخارها جفوني، أدمنها ولا أنام.. فقط مجرد قهوة! وتأسرني! لا أدري إن هي عشقي أو لعنتي... فقط قهوة... لكنها تغزو دمي يا لقهوتنا! والكثير الكثير من "الحالة ذاتها" في دائرة التأمل التي لا تتتهي، لأننا ماعدنا نملك إلّاها، مع التساؤلات التي بتنا نعرف أجوبتها، وإن كنّا مازلنا نستغرب ونستغرب أكثر فأكثر، بكل الأحوال يبقى الصمت هو الرديف المسالم رغم صخب غليانه، نوع من التسليم ربما، أو رب أشياء أخرى كثيرة، هذه ال "ربما" ما أكثرها! تخضع لقانون الاحتمالات والترجيحات والخوف والأماني... لا أعلم هي خليط من كل شيء. وما أكثر ما أقولها بصيغة الترجي والتمني... لأنني ببساطة: أشتاق... نعم أشتاق. قد قلتها لك سابقاً؛ بعض من ثباتنا خديعة وبها لا نجاهر. ساندريللو.. فنجان قهوة... لا أعلم لم حين أقولها بصوت عالي يحضرني صوت نجاح سلام بأغنيتها نشرب فنجان قهوة وأعملك تبولة وميل يا غزيل يا غزيل آه ياغزيل ميل. غريب صوت هذه المطربة، كنت حين أسمع صوتها أشعر بحالة من النشوة والصحو وتدفق الأدرينالين بجسدي، وكأن به شحنة من الفيتامين سي ههه صوت منعش بحق، ينشط الأعصاب ولكنه مع هذا لم يستطيع أن يتدفق في ضمير الأمة

وضمير السوريين وهي تغني سوريا ياحبيبتي... دعك من باقي الأغنية وكلماتها، لسنا بمجال تحديد إن كانت قد أعادت لنا هويتنا أو كرامتنا فمازلنا نتمرغ حقيقة بخساراتنا هويتنا أضعناها، وكرامتنا سفحت بذل الترحيل والتهجير والتسول من المساعدات من الدول الأجنبية... المهم أنها لطالما رددت كلمة سوريا ياحبيبتي... كانت هذه الجملة القصيرة وحدها، وهي حتى ليست بجملة كاملة، إلا أنها كانت كفيلة بأن تحيي بنا شعوراً وطنياً حاراً.. لكننا الآن كسوريين تائهين مابين الظل والنور نتأرجح، تتوه معالمنا. وكأن لعبة أحرف نتوه بين ثناياها مابين الغيبوبة والتغييب، فتش عن مكانك كمواطن قد يكون فيها أيضاً تبادل أدوار للكلمة... مواطنون وقادة ورؤساء.. وبين غيبوبة وتغييب.. هي لعبة بالأحرى لعبة محفوظة ضمن صندوق متنقل بين أيديهم... لا تهم أحجار اللعبة... بتنقلاتهم تتصادم تلك الأحجار ببعضها البعض، وأقصد فيها، الحلقة الأضعف، المواطنون، هم أحجار اللعبة... وكأنهم خلقوا للتراطم والتكسر... والانكسار. ساندريللو... هو همسي الآن يتسلل بين أصابعي... نعم أصبح همسنا خافتاً وحذراً نهمسه فقط لأصابعنا العاجزة لتحضنه بعض من دموعنا فترسله ابتهالا... هل؟ ألا ليت... ألا ليت! لكنها الغصة يا ساندريللو ما بين الصمت... والغصة... إشارات استفهام تتسلق حنجرتي وتمزقها بانحناءاتها، تنهشها. أحاول إزاحتها... فتدميني ساندريللو نعيش في خطر بل نعيش الخطر...

المهم أننا أصبحنا نستشعره متربصا بنا بكل شئ. الجميع فقد مصداقيته. ما الذي يدلنا على ما يعتبر ركيزة حقيقية للسلام؟ لاريب أن السلام هو مبتغانا، كفانا دماءاً وتهديماً لكل شئ بدءاً من إنسانيتنا وكرامتنا ووطننا. مخترقون نحن بعقولنا وثمة قوالب مسبقة الصنع لمفاهيم تملى علينا. لا شيء بلا ثمن. لنبحث عن الثمن لنفهمه لنفهم المقايضات وتبادل المصالح والتنازل مقابل الآخر... المهم هل آن الأوان أن نفهم؟هل يسمح لنا بالفهم؟ نحن من يعتبروننا خرفان الشرق هل لنا أن نستعيد بعضاً من كرامتنا ونعيد تركيب عقولنا في

ذاك الفراغ العنكبوتي. نحتاج وعياً، نحتاج قوة وكرامة ونهضة... نحن أحجار دومينو آيلة للسقوط أو قد لطالما كان قدرها السقوط على ذاك السطح الأملس... جهلنا الفرق أنه من يزيح الأحجار هنا ليست فقط يدان من طرف واحد تعبثان لتتداعى الأحجار لا بل على هاته الأطراف لطاولة... قد تكون مستديرة... ويزيد الحشد أكثر وقد تتطاول وتمتد كطاولة العشاء الأخير ولا ندري إن كان هذا سيكون فعلاً العشاء الأخير لا يهم طالما أن يهوذا حاضر دوماً حسناً أحجار الدومينو تتساقط على الجهتين في كل مرة تدفعها جهة... ليس لها إلا أن تتداعى... هنالك دائماً سيادة للسقوط، دوي وسقوط المهم ما عداها ما الذي يجرف بسقوطها؟ كم من التداعي ستمر به الكثير من الأمور؟ لا أعلم إن كانت تلك الأحجار قد تآكلت من عدد مرات سقوطها أم بعد مازالت صالحة... المهم هو أن آلية اللعب ما زالت قائمة، صرخات السلام تصدح... لكننا نريده سلاما مشرفاً.

ساندريللو ...

في كل عام نقول قاربت الحرب على الانتهاء... إلا أن من ينتهي هو نحن، هو الشعب الذي يتقهقر ويُشرد ويموت خيرة شبابه بحرب ليست حربهم مازلنا نقول: لم يبق الكثير.. إلا أننا لا نعلم أي كثير أو ماذا ننتظر... جل ما نبغية هو السلام... كفانا... تعبنا... حقاً تعبنا... ما لعبنا... نحن... لم يشركونا، بل جعلوا منا لعبتهم والآن؟ أم نقولها البارحة؟ تتضح الأمور بجملة واحدة " Game over" مليارات الدولارات تصرف على التسلح الذي يفرق بين أبناء الإنسانية ويجعلهم أعداء لبعضهم البعض آن الأوان لأن تخصص هذه الأموال للبحوث العلمية والطبية التي تجمع بين البشر في كتلة إنسانية واحدة يعمها السلام أن يكون الواعز الأول للإنسان هو الصالح العام، وليس الدمار ربما يكون الإنسان الآن قد عرف قيمة أخيه الإنسان، وأنه لا حياة له دون حياة لغيره.

ساندريللو...

ملعب الدمار... باتت أرضنا ملعباً للدمار ماذا بعد...؟!
إلى أين ستؤدي بنا عبقريتنا الفذة إلى ما هو أكثر من هذا؟؟
نحن قوم استطعنا استنباط مفهوم جديد للزمن.

تجاوزنا حتى خطوط العرض وخطوط الطول وسيطرنا
على مقياس الزمن بمفهومنا الخاص
لم تعد غرينتش نقطة الصفر أو نقطة البدء للتحديد

ببساطة أصبحت لدينا نقطة جديدة تمرُّ على الحد الفاصل ما بين حلب القديمة وحلب الحديثة، وبعيداً عن الالتباس لمسمى المحررة إذ أمسى مفهوماً مثيراً للجدل لكل من الطرفين السالب والموجب، وأعود لأكرر أيضاً ثمة تداخلاً أمسى حتى بينهما، المهم عالم ضبابي مختبئ خلف دخان القذائف فلم نعد نبصر الحقائق، كنا سابقاً قادرين على الرؤية بقلوبنا وبصيرتنا، أما اليوم؟! آسفة هنا يكمن كل الإشكال..

أهو اليوم أم غداً؟
أهو البارحة أم اليوم؟
يا شعب... ياقوم حتى بهذا أصبحنا نختلف ونتوه
يا للفوضى!
لأول مرة في التاريخ، ومضحك ما أقوله... التاريخ
يتأرجح التاريخ، الساعة، اليوم.
تقديم الساعة بالتوقيت الصيفي، موضوع نزاع بين طرفين، قسم من المدينة أخذ به والآخر أجله يوم

أليس من المضحك هدم الجدار ما بين برلين
الشرقية وبرلين الغربية.. وإنشاء جدار من عقرب
ساعة يقسم مدينة نصفين؟؟
أما يكفينا أننا حتى الهلال نختلف على ظهوره فنأخذ
بتجاذبه لنبدأ به عيداً أو صياماً؟
بارعون نحن بكل شئ... ليس بالاختراعات المادية
فقد تجاوزناها... يكفينيا أن الغرب يتحفنا به فيحيل
ما ارتفع من بنياننا إلى خراب ويغير من خضرة بلادنا
إلى السواد وتربتها إلى لزوجة الدم.
نحن ملوك التجريد الفكري... نقدح زناد فكرنا لابتداع
التقسيم والتأويل والادعاء
فنمتلك زمننا الخاص وأطلالنا الخاصة واحتفالاتنا
الغبية.
اسمعوها أكثر فأكثر... تك تك... تكات ساعة زمننا
هذا... ربما لو استمرينا على هذا سنغلق الزمن
على بوابة المستقبل
ولن نكون سوى بضعة أسطر نقرؤها في الويكيبيديا
عمن كان هنالك من شعب سوري.
رحمة بسوريا... لنرحم الزمن والهلال والصليب
رحمة بسوريا لنرحم الإنسان والفكر.
لنرحم شعب الإخاء والمحبة كفانا عبثاً وجهلاً وطمعاً
وتشبثاً بكراسي ومناصب، واستنزاف لدم شعبنا

وحرمانه من قوته .آه يا ساندريللو... أشعر بحماقتي وكأنني خطيب على منبر أخطب في جمهور أصم... لا أعلم كم علينا أن نهذي بتوسلاتنا لوقف هذا النزيف... كل جريح من أي من الأطراف هو جرح بقلوبنا... لاشيءأشد ألماً من صراع الأخوة... وكأن الصراع هو أس البقاء صراع أول بدايته كان بين الأخوة لو لم يكن قابيل... لكان هابيل، حتى يسود الغدر. وتصبح الأخوة مجرد كلمة تسبح في الفراغ، قد تمسي ذات يوم بضاعة في سوق العرض والطلب.

تمزق الأفعى جلدها لتكتسي جلداً آخر، لا أعلم إن كانت الأفعى تشعر بالبرد حين تنسلخ عن ذاتها. أتساءل إن كان فراء الأرنب أو الخروف يدفئها إلى حين تعاود الاكتساء؟

إن لن يدفئها شيء... ستستمر بالزحف والالتفاف،لأنها ببساطة تبقى أفعى لا يدفئها سوى... ذاتها.

هابيل... كان موتك في سلامك.

فلتهنأ ياقابيل.

عاود اكتساء ذاتك ما عاد من شيء مهم

أغلب الكلمات... أمست فقاعات، تغيرت فيزيولوجياً، وبكل ألم السخرية نعم (للكلمات)

فيزيولوجيا خاصة.. إن أردنا الابتعاد عن التجريد طالما لسنا بالنتيجة قادرين عن الإحساس بها.

فلنتخيل فيزيولوجيتها

أبسط مثال على ذلك هو الأقسى.

بالذاكرة الانسانية... ..الدم .ماعاد مهما أصبح بكل أسف... بل أمر من الممكن تجاوزه، طالما أنه فقد لونه حتى.

وبالتالي لم يعد مستبعداً أن يفقد رابطته.

تحللت الدماء مثلما تتحلل العناصر وتتلف. كان علي أن أردد اسمك كثيراً... كي لا أنسى.

شكراً قابيل ما كان من الممكن أن نفهم الحياة لولا.. مرورك بها.

مرورك أكثر من قاس.كنت ألمحك كل يوم وبكل المواقف

وأقول... هو ليس بقابيل.... بل أخيه.

فطوبى للحمقى الغارقين بطوباويتهم. صدقني يا ساندريللو لم تعد القضية فقط في البحث عن القيم كمعاني مجردة لها هيكليتها الخاصة بكل خصائصها في ضميرنا.. بل أصبح الأمر يتعداها إلى شراسة الدفاع عنها كل من جانبه بحماقة غوغائية حتى نسي الهدف منها وبقي شكل الصراع فقط... في لعبة شد الحبل يا ساندريللو تمزقت القضية... وهذه هي الحقيقة... تجاذبنا الخارطة... وتمزقت بين أيدينا. حقيقة مرة... طعم هذا البن المحروق الذي أحتسيه الآن... أووف يغشون بكل شيء لا أعلم مايطحنونه مع البن ويضيفونه إليه.. قد يكون خبزاً محروقاً أو حبات من الحمص والله لا أدري سوى أن المذاق لاذع وكريه.. هه أعلم أنك تقول لنفسك هذه أنت من لا تجيد إعداد فنجان قهوة... كأن مرارة الحياة تتماهى مع مرارة الذائقة الحسية أيضاً... أحتاج إلى ما يعدل مزاجي، أحتاج إلى شيء حلو المذاق، لم أفطر بعد وأفكر بالمامونية ما ألذه من إفطار صباحي مامونية بالقشطة والفستق الحلبي وبجانبها جبنة حلبية مشللة... من الرائع أنه مازال عندي بعض السميد والسكر لكن طبعاً لا مجال لتوفر القشطة والفستق هذا سيكون منتهى الترف بأيامنا هذه على فكرة ساندريللو تعتبر المامونية نوع من الحلوى الخاصة بمدينة حلب ويقال إن الخليفة المأمون

كان يحب الحلوى فأعدت له جاريته هذا النوع وسمي على اسمه... نتوارث أنواع المآكل لتصبح مع الزمن بعضاً من ثقافتنا الفولكلورية.. أحب هذا التنوع بهذه الخصوصية... حين أفكر كيف أن للإنسان أن يكون هذا الكائن الجميل الذي يضفي بصبغته الزمنية والمكانية على مكان تواجده مهما كانت بسيطة أو عادية فيصبح علامة مميزة على مر العصور...شيء جميل للغاية وكأنه لوحة زمنية ممتدة على خصر الكون في كل منطقة منه تضاف ألواناً خاصة بها بدرجات متفاوتة... لتتفاعل كلها على ساحتنا البصرية بمشهدية رائعة... ساندريللو؛ بعيداً عن هموم الحرب، فالحياة بحد ذاتها جميلة جداً جداً، أبدعها خالق فنان بكل الروعة... قد تستغرب ساندريللو إن قلت لك أنني كثيراً ما كنت أشتهي أن أتذوق ماكان شبيهاً بهذه المامونية أو ربما أنا كنت أعتقد في ذاك الوقت من طفولتي أنها مامونية بيضاء... أذكر الأطفال الصغار يدورون في الطرقات حاملين بأيديهم صواني بها مايشبه هذه الحلوة لكن مسكوبة بشكل صقيل وبارد طبعاً... كنت أعتقد أنها مامونية فقط لكون سطحها مغطى بالقرفة الناعمة وكنت أرى أيديهم الطفلة وهي تقوم بتقسيمها وتقطيعها وبيعها بأشكال مربعة بحجم كف اليد الصغيرة ويضعونها على ورق هش ويقدمونها إلى من يشتريها..كنت في كل مرة أحاول التملص من يد جدتي للذهاب إلى هؤلاء الأطفال متمنية أن أستطيع الوقوف معهم وحمل صينية مثلهم والجلوس على الرصيف على كرسي معدني صغير ملفوف بشرائط النايلون الأزرق والأسود... كنت أحب الانضمام إليهم، لا أعلم ربما بداية الشعور بلذة النزعة الاستقلالية الطفولية... كانت جدتي تنهرني بلطف وتنبهني إلى الذباب المتحلق حول تلك الصواني... المهم أنني فهمت من ذاك الحين أن الحلوى يجب أن تحمى حتى لا يتهافت عليها الذباب... الشيء بالشيء يذكر؛ في سوريا تهافت الذباب بكثرة على الفطيرة... ما أجدنا حمايتها... ساندريللو... أتركك الآن لأتناول إفطاري... الحلوى لا تقاوم وهي نقطة ضعفي. رسالتي اليوم إليك قصيرة... علي أن أنتهي

من إفطاري وأغادر سأحاول أن أرسل بحوالة مالية إلى ابني... لا أعلم إن كانت مكاتب الحوالات مفتوحة.. فمنذ يومين من خلال الاشتباكات سقط الكثير من الجرحى من المارة بالقرب من المكتب الذي كنت أرسل منه... لكنني مضطرة للمغادرة... أحياناً أشعر بثقل كوني وحيدة بهذا ولكن حين أخرج إلى الشارع وأشاهد المئات من النسوة أعلم أن شبابنا قد رحل معظمهم أو استشهد أو اعتقل وأن البلد أصبح شبيهاً بحال ألمانيا إبان الحرب العالمية.. أووف ساندريللو... مضطرة لأن أختم الرسالة الآن... سأوافيك بغيرها قريباً.

الرسالة السابعة والعشرون ((27))

عزيزي ساندريللو...

تدرك أنك عزيزي فعلاً دون أي شك بهذا... من عزلتي هذه ليس لي إلاك من أبثه ما يجول بخاطري، بعيداً عن مباغتة الاتهام والمحاكمة، وبعيداً عن كل اصطافاءاتي السابقة لمن كانوا أو لم يكونوا جديرين بثقة المكاشفة؛ ولا أعني بهذا الرجال فقط بل أي إنسان أو إنسانة بحالة حيادية مطلقة، لا يهم فيها النوع قدر أهمية الفكر المهم هو تلك الدعوة للسبر والفهم والإدراك بعيداً عن التخوين، بعيداً عن المحسوبيات، بعيداً عن الاتهامات. مازلنا كرأس هذا الشكل المغزلي الذي يدور برأسه المعدني بسرعة جنونية، يدور على رأسه بعد انفلاته من حبل أمسكته يد ما... نعم عزيزي ندور على رأسنا وإن حاولت أن تمسك بطرف هذا الرأس ستجده حاراً جداً بفعل الاحتكاك بالأرض... حارٌ إلى درجة اللسع كما الإمساك بطرف الحقيقة... هذا بالضبط ما يصيب الرأس حين يتماس مع القاعدة التي يدور على سطحها... هههه... إنها السياسة يا عزيزي... هذا ما أقصده... ثمة رؤوس تدور هياكل أجسادها باهتزاز وتأرجح هنا وهناك مرة يمنى وأخرى يسرى... كما التمايل السياسي بمواقفه مابين المعسكرين... وهذا الرأس الذي يدور على أرضيةالقاعدة الشعبية التي تحمله يصاب بالحرقة حتى الانفلات والهمود... المهم أن هذا يدور على سطح القاعدة، على الأرضية التي

هي الشعوب... يحتاج هذا إلى سطح مستوٍ ليتحمل دوران هذا البلبل الصياح، لا أرضاً متعثرة! أرضنا مليئة بالعثرات يا عزيزي ساندريللو،ولن تحتمل مهاتراتهم وتأرجح مواقفهم... هل تفهمني ساندريللو؟ أرجوك قلها... قل إنك تفهمني، إن لم تكن أنت من يفهمني فمن يكون غيرك؟

ساندريللو أخرج من نطاق الفرجة... الحزن فيلم بائس وطويل... أستنشق الحياة عبوراً إلى ضفة الفرحة، حيث لا بطاقات تباع بالسوق السوداء هو فقط فضاء قلبك واصطفاء.كثيراً ما نكون مسمرين أمام حيرتنا... كأنه بات عصر الذهول... نحتاج إلى ومضات كثيرة تبرق في عقولنا حتى نفهم... كان آباؤنا محظوظين؛ إذ كان زمنهم وزمن آبائهم زمن البساطة لكن الأمور مختلفة الآن تماماً، ربما كان عليهم أن يهيئوننا ماقبل الصدمة؟ لا أعلم تشكيلنا الفكري حالياً مازال غير قادر حتى على الإدراك و التمييز فما بالك بالتدارك؟ هل كان بإمكاننا تدارك ما إلنا إليه الآن؟ هي الحيرة نعم. فليكن حين تهامسك الحيرة... اصغ لها... ثمة ما يهمك أمره. حين نصغي إلى لغة الصمت جيداً... نفهم رموزها وكأنني أراهما معاً... أساس حياتنا "استفهام وتعجب"... هكذا أرى الحياة. تأبط الاستفهام التعجب... ومضى معه بعيداً... أرهقتهما نظرات الحيرة. حين تنظر إلى ما آلت إليه بلادنا ربما تفهم... زرعوا الكركبه في الأرض... ليبسطوها... مهاداً... نعيش عصر الرياء... رياء اجتماعي فردي وسياسي في مخازن الرياء... ثمة أضابير لم تفتح بعد مازالت قابعة هن تنتظر تصنيفها على هوامش الحياد .لكننا مازلنا لم نفهمها بعد... تلك الخيانات... لم نفهم أنهم استنسخوا ألف ألف يهوذا... لكننا نبجل من نخادع أنفسنا بالإيمان بهم... مؤمنون جداً بأطراف أصابعنا إلى حد التفاهة، أصابع تمارس دور حراس التغييب... مازلنا نبجل أصابعنا ونتركها أمام أحداقنا... نطمس الحقائق... نضخم التفاهة... ولا ننتبه إلى الآت. والسؤال الآن: تلك الحدقة... أما آن لها أن تتجاوز ذاك الإصبع؟!

آه ساندريللو... يا لطالما همستها بحزن: بيتر بان... لست الوحيد الذي فقد ظله الحقيقة واضحة... فقدنا كل شيء... وأمسينا كما أقول دائماً غجر القرن الواحد والعشرين! أتعلم يا ساندريللو أنهم كلهم قد ضللونا؟ لم نعد نفهم سوى أننا بذهول كامل، ذهول فقدنا معه الثقة بكل شيء، تتغير المواقف، يتغير الأشخاص وكأنها لعبة الأطفال تلك، كما لو كانوا يحجلون منقلين خطواتهم تارة على حافة الرصيف وأخرى على الرصيف ذاته... هو المسير نعم.. لكن! لا يؤدي إلى شيء، مجرد لعبة... لعبة مراوحة. أتذكر الآن الإعلام العراقي في زمن حصار بغداد وأذكر وزير الخارجية ووزير الإعلام محمد سعيد الصحاف كيف كان يدير الحرب الإعلامية خلال الغزو الأمريكي للعراق وكلمته "العلوج" كانت إشارة استفهام لنا نحن البعيدون.. لم نكن نفهم معنى هذه الكلمة بل حتى أننا لم نجد لها تفسيراً نحوياً... كل ما في الأمر أن الموضوع كان يتخذ شكلاً حماسياً.. بغض النظر عن الموالاة أو المعاداة لنظام الحكم إلا أن الحقيقة أن مايجري كان غزواً حقيقياً من طرف أجنبي أذاق العراق الأمرين... كان الوضع ليختلف لو أنها كانت ثورة داخلية لزعزعة نظام الحكم من قبل أهل البلد أنفسهم... لكن كما الأمس كما اليوم وكما هو المرجح دائماً كما الغد أرجوحة الحكم دائماً بأياد غريبة ولا تهوي معها الأرجوحة فقط بل كل ما هو حولها وتحتها المهم أن ماذكرني بالصحاف والعلوج هو فكرة الإصبع والحدقة... والمراوحة... طبيعي أن يمارس دوره كوزير إعلامي بشكل لا يحبط فيه من طاقة الشعب المعنوية.. بذاك الحين لم تكن الأمور محصورة بالنزاع بين نظام حاكم وأقليات كردية، رداً على الحرب الكيميائية على الأكراد في حلبجة التي كانت محتلة من القوات الإيرانية وقصفت بالغاز الكيميائي من قبل الجيش العراقي خلال تقدمه إليها، فمات جراء ذلك أكثر من خمسة آلاف فرد كردي أكثرهم من المدنيين عدا إصابة ما يقارب العشرة آلاف منهم ووفاتهم في العام الذي تلا العدوان من عام 1988 جراء المضاعفات الصحية التي تعرضوا لها، وكذلك الأمر بالنسبة للحروب ما بين الطوائف المتنازعة عدا عن حالة الغليان الشعبي التي كانت

سائدة، لم تكن حرباً داخلية أو حرباً أهلية بقدر ما كانت بداية لحرب ترسخ لتفتيت العراق بنزاعات لا نهاية لها... وحين مارس الإعلام دوره في تطمين الشعب عبر مبالغاته في الادعاءات عن بطولات مختلقة للجيش والمقاومة، كانت أمريكا وقوى التحالف تطبق على الدولة بكل شراسة التعدي، لتبدأ مرحلة هي الأسوأ وتسحب معها هيكل هذا البلد مضعضعة إياه بنهش وتدمير... لا يمكن لأي دولة مهيمنة أن يكون سعيها فقط لمجرد تخليص دولة أخرى نحن لسنا أمام أمنيات يحققها سانتاكلوز.. ربما تاهت من وعينا الحكايا ما بين شخصيات الروايات، ثمة فرق ما، بين سانتاكلوز وبين الذئب في ليلى والذئب.. في حكايا السياسة، الذئب شخصية رئيسة وهو الحاضر دائماً جاراً خلفه قطيع من الذئاب بشكل حلفاء أو قوى دولية...

ساندريللو انزع من رأسك عبثية الفكرة السابقة، رغم التشكيك بصوابها حيث أن لكل حالة حيثياتها، فكرة أنا وأخي على ابن عمي أنا وابن عمي على الغريب... لم تعد قائمة نحن بكل الأحوال نهاجم أبناء عمومتنا وإخوتنا ونناصر الغريب متحالفين معه... ساندريللو في خضم الصراعات القائمة بواقعنا أكثر ما نواجهه هو دوغمائية الأطراف المتنازعة، دون أي مراعاة لما قد تكون عليه النتائج، وقود الصراعات هو دوغمائية أطرافها، التعنت في المعتقد والإيمان بأن كل طرف هو صاحب الحق الأول. هو فكر صدامي يغذي ردود أفعال متنامية عبر تفاقم الأحداث التي لا تنفك أن تجر وراءها قوافلاً من صراعات لا تنتهي. أعتقد جازمة أن الأمريكي "ميلتون روكش" هو أول من فهم سر تركيبة الصراع الأزلي بين الإنسان وأخيه الإنسان... سيبقى العالم على ما هو؛ عالمٌ كل يرى الأمور بمنظاره، الأحقية يجدها الإنسان لمن تتماثل أفكاره مع معتقداته هو، والأدهى من ذلك، هو انعدام الليونة في قبول أي مناقشة أو محاولة لفهم الآخر... هذا عن فرد واحد، فما بالك بتجمعات لأفراد يجمعها فكر واحد يعادي فيه أفكار المجموعة الثانية؟ الأمر أشبه بمباريات دائمة وليست دورية فقط والعالم ساحة

ملعب وكل قضية فيه كرة... سيبقى التنازع ليبقى التمايز والتمييز والصراع على تلك الكرة "السلطة" ساندريللو لا تضحكني أرجوك بذكرك للروح الرياضية.. في لعبة النهش لا توجد روح رياضية. قد يوجد فيها فقط بعض الاستراحات، بعض الهدنات، أحياناً تبديل للاعب بآخر... والترهيب موجود دائماً.. الكرت الأصفر جاهز... فقط اصغ للصافرة. الصافرة هي الأوان... هي الزمن... هي التحديد .

كثيراً ما كان يضحكني شكل الصافرة في طفولتي... كنت أشاهد تلك الكرة الصغيرة كيف تدور بداخلها أثناء التصفير... أنفاس تنفخ في ذاك الفراغ الصغير فتدور الكرة، ويرتفع صوت الصفير.. أنفاس وكرة... وصفير... وينتبه العالم كله... تكون اليقظة... والاستغراب... والترقب.. والتحفز والآن... تتدافع الأنفاس وهي تزفر وتنفخ... والكرة؟ ماذا عن الكرة؟ في أي الملاعب تدور؟ بل في أي الفراغات؟ تلهث أنفاسنا لندفع بها؟ ليس هنالك من كوة فراغ صغيرة... بل هو عالم بأكمله! أتراه هو السبب؟ لا صوت... رغم كل الحناجر لا صوت... رغم كل الأنفاس... لا حياة. والكرة ماتزال... تهرول...

عزيزي ساندريللو: التبس عليك الأمر ربما؟ كنت أحدثك عن الكرة وعن الصافرة. بحقيقة الأمر، كما هي الحياة، توجد كرتان..كرة بداخل الصافرة نحركها نحن أيضاً بأنفاسنا... وكرة يحملها الحكم... والكرة المرصودة للعب، أعني بها تلك التي في الملعب.. ضع لها رمزاً إن شئت فكم تجيد الرموز اللعب بساحات أفكارنا. سيبقى الصراع وستبقى تلك المراوغات وستبقى تلك الأصبع جاثمة أمام أحداقنا... سنصغي لأبواق الكذب ونحن مدركون أنها مجرد كذبات وبالتالي سنقبل على أنها نظريات المؤامرات لنترفق بذواتنا على أننا أبرياء، وإن تبحث في جوهر الأمر فكلنا شركاء في تدميرنا ومؤامرتنا بالتغافل والتخاذل والطأطأة والمامأة والرضوخ والطمع والجشع والتردد والتهالك والتمادي و.و.و والكثير من المصطلحات التي نسمعها ونبرم شفاهنا بتعجب المستغرب ونقلب أكفنا كما لو أننا نسمعها للمرة الأولى .

صدقني ساندريللو : للإعلام مكره، فقد درسنا تماماً، نحن الشعوب، فهم ماهيتنا وفهم ما يقدمه لنا فأصبح يلعب على سذاجتنا ومكرنا أيضاً... هو يفهم كل شيء.. نظام التلقين... وأيضاً التلقيم. ساندريللو .. لنعد إلى حيث أنا... وأنت أعلم عن حزنك واختناقك وتبرمك وشوقك للتحرر بعيداً عن سجنك... لكن صدقني ساندريللو كلنا سجناء حيث نحن... وأيضاً حيث ذواتنا... جدران ألمنا وضيقنا وحزننا باتت أقوى من جدران إرهابهم وحصارهم وتعذيبهم.. الكل يعاني... وإن تسأل عن ال "هُم"؟ لك أن تصنفها ضمن دائرة الرمزية والإبهام... فما عدنا نعلم من هُم ال "هُم" بكل الأحوال تصنف على أنها ضمير... إلا أن تصنيفها الفعلي (ضمير بلا ضمير). لك أن تقول إن الحال الآن يماثل الغرق لم تكن وحدها أطلنطا التي غرقت بالأزرق. مدينتي أيضاً غارقة بدموع أبنائها دموع... تمسح الأحمر وتبقى... بلا لون بلا صوت. كالعالم أجمع.

في بحارنا... لا منارات لا شواطئ...في بحارنا نجيد الغوص حتى الغرق في بحارنا.. فقط أعلام ملونة... تحظرنا ترسل الأبيض... أكفانا لنا وإن تسأل عن السلام، عن الحلول، عن الحياة؟ في أروقة المؤتمرات يتمشى رواقيو العصر برواق... على الأقل... اتفقوا... أن لا يقلقوا هل تذكر حين خرج الناس يبحثون عن بوكيمون؟ أرى أن فكرة السلام شبيهة بلعبة البحث عن بوكيمون... لعبة أطلقتها شركة ننتيندو اليابانية على هواتف الأندرويد وشغلت العالم كله بهوس البحث عن بوكيمون... البحث عنه كان برأيهم ضرورة وليس مجرد متعة... ضرورة قاربت حد الهوس.. السير بحسب خوارزميات محددة تعتمد على استكشاف موقع تمليه الهواتف الذكية... هوساً مجنوناً بات حاجة كما الإدمان... ربما كنا نحن أيضاً ومازلنا بهذا الجنون في البحث عن بوكيموناتنا الخاصة بتهدئة روعنا عبر ما نجده تطمينات بشأن سلام قادم.. كنا مازلنا نتابع بحماس كل الإذاعات والأخبار لنفهم مايحدث وأين هو السلام من خارطة طريق سياسية وهمية تفردها أصابعهم أمامنا بشكل

اتفاقات، ومعاهدات وتلويحات بتغييرات مقبلة عبر دستور جديد أو ترسيم حدود جديدة، أو ربما حكومات انتقالية أو انقلابات جذرية... أي ما كان... ليكن ما يكون فالشعوب كلها كانت بحاجة إلى ما يطمئنها أن ثمة هدوء قادم، هدوء استكانة، سلام وسكينة، وليس بذاك الهدوء الذي يسبق العاصفة، فقد أصمّتنا أصوات العواصف ومدافعها وجراتها وبراميلها وأسلحتها وأعمت أعيننا، رمالها ودخانها ونيرانها.. لم نعد نميز إلا حقيقة رائحة ولون الدم والدمار... تعبنا ببساطة، تعبنا بل تعبنا جداً. وكما قالها أحمد الحفناوي التونسي رجل الشارع البسيط "لقد هرمنا" ربما كانت تونس هي أقل دولة دفعت ثمن ربيعها العربي لم تطل معاناتها، ولم تغرق في لجج الحرب ومع هذا... قالوها.

آه ساندريللو...

تغامر الشعوب من أجل خلاصها لكن؟ لكن مغامرتهم من أجل الخلاص إن هي في حقيقة الأمر إلا لعبة على شاشة تلفزيونات الواقع حيث تكون كما لعبة الفأر والهر، مداعبة قبل السحق.

يغامرون... نعم يغامرون يتسلقون دهشتهم... وبالتسمر يكتفون مجرد خط يشير أنهم ما دون الصفر قابعون. أقولها لك من جديد يا ساندريللو:

في بحارنا... لا منارات لا شواطئ...

في بحارنا نجيد الغوص حتى الغرق.

في بحارنا .. فقط أعلام ملونة... تحظرنا ترسل الأبيض أكفاناً لنا

في أروقة المؤتمرات يتمشى رواقيو العصر برواق... على الأقل اتفقوا... أن لا يقلقوا

قصوا الأجنحة... وقالوا: طيروا

هكذا هي الحقيقة؛ يشذبون الأشجار من جذورها... ونستغرب كيف أنها لا تثمر؟

عليَّ أن أنهي رسالتي الآن ساندريللو، هي جارتي أحضرت إليَّ صحناً من طعام حلبي أحبه.. عدس بالحامض، ولم تنسَ أن تحضر لي معه مخلل اللفت الأحمر والشوندر.. منذ أيام واللحم مفقود لا نستطيع الحصول عليه فنعتمد على البقوليات الموجودة بالبيت. جميلة جداً عادة أهل حلب بتكديس المؤونة من كل المواد، ربما هذا ما أفادنا بهذه الأوقات العصيبة، لا يخلو أي بيت منها، يوجد دائماً احتياطي غذائي بوفرة من الجبن و الأرز والسكر والبرغل والزيت والبقوليات والجوز والبصل حتى الكعك.. ربما عادة قديمة توارثناها من أجدادنا الذين عاصروا أحداث سفر برلك، وأحداث الحروب التي تلتها. أحب مأكولاتنا الحلبية، لكن أنا متأكدة أن أغلب الناس استنفذوا ماكان عندهم من مؤونة. الحرب اللعينة، لم يبق عندي حتى القليل من البن وأنا مدمنة قهوة. أشعر بصداع رهيب تذكرت أنه مازال لدي بعض الشاي حسناً هو أيضاً كافئين لكنني لا أحبه كما القهوة.. حين فتحت مطربان الشاي فاحت رائحته العطرة.. لا شيء يضاهي شاي سوق المدينة القديم المعطر.. أعتقد اسمه شاي كرزة... سأحتسي منه كأساً وأتابع كتابتي إليك فيما بعد.

الرسالة الثامنة والعشرون ((28))

عزيزي ساندريللو...

ربما ارتبط حبي للصمت بتخاذلي للكتابة.. وكأنه تحالف مضمر بأن يكون لإطباقة الشفاه الإطباق ذاته على مفتاح البوح والرمي به بعيداً إلى حين. هو الكثير من حبال الشوك التي باتت تخزنا من الداخل... لا أعلم كيف بات الشوك يجد طريقه للتكاثر والامتداد عبر خلايانا ومسامنا وحتى زفراتنا... يجرح يخرش بل ويدمي... لطالما كان البوح رديف الشكوى والقهر وأعني به ذاك الذي يخصنا نحن الشرق أوسطيون... معاناتنا التاريخية ارتبطت بنا حتى بموسيقانا فباتت المواويل والميجانا تحمل معها ال "أووف.. أووف" لفظ مغموس بالحرقة رغم التوق اللحظي حين بدء أي أغنية بأن يكون في هذا نوعاً من الاسترسال والانعتاق للروح، من كل ماتحمله لتتماهى فقط مع عالم الموسيقى لكن وكأن الأمر خارج عن هذا فتأخذ الحقيقة بالتدفق... مسبوقون نحن دائماً بتنهيدة أو زفرة قهر وألم، شيء شبيه بالأمراض الوراثية... وكأنه كتب على جيناتنا تلك المعاناة.. تصور ساندريللو منذ فترة طلب مني أحد الفنانين قصيدة أو كلمات لأغنية ليقوم بتلحينها حين أرسلت له ما اعتقدته ملائماً عاتبني قائلاً بأنه عراقي والأغاني والموسيقى عليها أن تكون حزينة لأن هذا ما طبع عليه التاريخ الموسيقي لهذا البلد "سيدتي نحن شعب خلق ليعاني، تعودنا على هذا، هذا قدرنا،

بل وأضحى سمة وبصمة منذ الأزل ونحن على هذا الحال". ساندريللو حين أعود بذاكرتي إلى أول مرة سمعت فيها معزوفة نينوى.. تعودني القشعريرة ذاتها مع ذاك الانغماس الكلي بحالة الشجن... ربما كانت المرة الأولى التي لمست وفهمت فيها هذا الشعور من خلال عيش الكلمة ذاتها.. "الشجن" حسناً يحتاج الموضوع إلى تدخين سيجارة والتأمل، تتساءل لماذا؟ لا عليك هو فقط إدراك أن الحال هو ذاته ما تغير عن قرون طويلة "سيدتي هو قدرنا وهي لعنة منينا بها على مر الأزل، بلاد الرافدين لطالما كان هذا قدرها".

ما زالت كلماته تتردد بداخلي.. هل فعلاً هي فقط بلاد الرافدين؟ لا أعلم... ربما بلاد الحضارات مصيرها دائماً هكذا... قد تقول أنها دورة الزمن.. فعلاً إن عدنا إلى التاريخ سنجد أن الأحداث متشابهة بتتاليها وترتيبها الزمني، إن أردنا تشبيه هذا بخطوط بيانية، ربما ابن خلدون وجد الحركة كما لو كانت دائرة تدور فهي إذاً التفافات، لكن للغرب رؤيته الأخرى؛ فأنا أرى أن ماركس كان يجد هذه التغييرات خاضعة إلى حركة خطوط منكسرة... ساندريللو فكر معي: الفرق بين التفاف خط ودورانه وبين امتداد خط وانكساره، بنهاية الأمر هو تغيير... لا شيء يبقى على ما هو عليه... لكن ما هو التغيير حين تكون النقطة في أعلى مركز لها وتتدرج لتصبح في الهاوية سواء بخط منحني ويعني بحركة التفافية تكون هادئة نسبياً على عكس الخط المفاجئ المنكسر أليس في كل منهما ما هو ثورة على ما كان؟ هي فعلاً الثورة ياصديقي... ثورة على مكان هذه النقطة على مركزيتها أو حركتها في النتيجة... لا ثبات في الحياة... دائماً هناك تلك الأسباب المؤدية إلى تحريك هذه النقطة. اللعب هو دائماً على هذه النقطة، تحريكها، تحطيمها، أو امتلاكها... ابحث عن السر الأعظم.. عن السلطة. ساندريللو.. ثمة لعبة كنا نتهافت للحصول عليها وهي عبارة عن خرزة ملونة تمر من خلال سلك ملتف بخطوط أشبه ما تكون تلك التي لسكة قطار للأطفال.. خرزة تتدحرج أو تندفع تهبط أو تصعد... كانت هي لعبتنا...

مركز اهتمامنا حيث تدور معها أحداقنا وأنفاسنا... هكذا هو الأمر... نتابع بأنظارنا... كأطفال نكون نحن الأقوى... نكون الموجهين للحركة والمسيطرين عليها.

يختلف الأمر ونحن كبار... لانمتلك اللعبة بل هي من تمتلكنا نصبح المتفرجين العاجزين فقط آه ساندريللو ما زلنا على الحال ذاته... أحمق من يخال أن العثرة لا تكون إلا بحجر أو حصى، أصعب السقوط هو أن تنزلق على أرض ملساء. الجليد... ذاك الأملس الناعم يحضن خطانا لغواية الانزلاق؛ كأننا نسير على جليد أملس، مخدوعين بمساحات صقيلة، نعتقد أن لا شيء يعثرنا... وكأنه بغياب الحجر المرئي للعين لا نسقط ولا نتعثر... لكن الأمر أدهى من هذا بكثير، هل تفهمني ساندريللو؟ هي خدعة بسط طريق مصقول سلفاً، كما خدع خطباء الانتخابات، ووعودهم وإشاراتهم إلى نسف كل الوعورات السابقة ودعوة الناس إلى طريق ممهد بالوعود!

هو الانزلاق بالثقة.. مؤتمرات تخديرية "مؤتمر جنيف 2 للسلام" ذاك المؤتمر المدعوم من قبل الأمم المتحدة؛ لإنهاء الحرب الأهلية في سوريا، للجمع بين الحكومة والمعارضة، لتسوية سلمية عبر نقاط ثمانية. بكل الأحوال كانت الأمور واضحة من بدايتها رغم جهود مبعوث الأمم المتحدة الأخضر الابراهيمي والرئيس الفلسطيني محمود عباس ووسيطه نضال السبع بمقترحاته في النقاط الثمانية التي اعتمدت كنقاط أساسية يقوم عليها مؤتمر جنيف. في بداية الأمر بدت الأمور مطمئنة... بل وتفاءل معها الناس بإنهاء الحرب الشرسة... كان التطلع إلى السلام هو هم الشعب الأكبر... البحث عن خلاص بعيداً عن أي حكم كان المهم أن يتوقف نزيف الدماء.

آه ساندريللو... لو تعلم مدى الوحشية التي تدور في بلادنا... من الطبيعي أن نرحب بأي حل فقط للخلاص... في بداية الأمر كان التعاون وثيقا بين الولايات المتحدة وروسيا ربما كان مستغرباً في البداية لكن

الأجواء بدت حينها إيجابية لتحديد موعد مباحثات السلام... مؤتمر جنيف الثاني 2014 المؤتمر كان فاشلاً تماماً... كما كان سابقه جنيف واحد عام 2012.

ساندريللو كيف للأطراف أن تتفق على حل جذري وكل طرف يناقش فكرته هي بالذات، ويمليها دون النظر إلى وجهة نظر الطرف الآخر؟ الحكومة تتحدث عن الإرهاب كبند أساسي، والمعارضة تتحدث عن تغيير الحكم. المهم كان الطرفان يأبيان الاجتماع بشكل فعلي بتعنت غبي من كل طرف منهما لم يجتمعا إلا مرتين وطبعاً ضمن مشاحنات لم تصل بهما إلى حل، سياسة التمييع "تمييع الزمن، والمطمطة في المواقف" لم يأبه الطرفان باستمرارية القتال الدموي... لأن البحث عن الحلول المنطقية ماكان بالجاد فعلاً.. هل تعلم شيئاً ساندريللو؟ ذكرتني الأمور هنا رغم كل الألم بالأفلام المصرية القديمة حين التنازع على شقة وكيف يكون الحل التعجيزي بجملة تبقى (الأمور على ماهي عليه)المشكلة باتت أكبر بكثير وباتت أرضنا مركزاً لغرس الأعلام الدخيلة والمرتزقة. ربما الأخضر الابراهيمي كان عاجزاً عن تحقيق التطلعات السلمية لإيجاد الحلول، فحل بديله ستيفان ديمستورا في مؤتمر جنيف3. إنه عصر البهلوان... ربما لم يكن جديراً بي أن أكتبها هكذا.. إن أردت التفكير بمصدرها ككلمة سأجد بديلاً لها في قهقهات القواميس، تاهت الكلمة ومعناها... إذ أضحت مجرد لفظ لبداهة يعيشها الجميع... نسير على حبال محاولين التوازن... مضحكون نحن... نعم.... مضحكون إلى حدود البكاء. ساندريللو... الكل متعب تهجير، ونزوح، قتل، سرقات، رعب، موت. ساندريللو عليَّ أن أملأ استمارات متعلقة بي نسيت أن أخبرك بأنني، غادرت... نعم غادرت رغماً عني... بقيت وحيدة في بلد الحرب فكان لا بد لي أن أغادر... سأكتب لك قريباً.

الرسالة التاسعة والعشرون ((29))

عزيزي ساندريللو... تركتك مستغرباً في رسالتي الأخيرة.كيف استطعت أن أقولها لك؟ وقبل هذا أن أقولها لنفسي؟ نعم، لقد غادرت... غادرت روحي وأرضي وبيتي وأهلي وبلادي. في لحظة ما، لحظة حاصرني بها الخوف والقلق والحيرة، لحظة كان القرار حسماً لم أمتلكه أنا، بل هو الذي تمكن مني وأقسرني على التوجه.كنت أغادر وأنا أفكر بكثرة الأعلام المغروسة في بلادي... علمونا في الطفولة بأن لكل وطن علمه الخاص لكن! ربما هو سوء رؤية؟ لا أعلم إن كانت الرؤية ملوثة. حين غادرت كانت السماء تمطر فتساءلت إن كانت دموع السماء تغسل الأعلام الملوثة... أذكر جيداً هبوط ناسا على سطح القمر عام 1969 وكان يومها أكثر ما أثار استغرابي هو رفرفة العلم الأمريكي على سطحه أذكر أنني سألت والدي حينها هل هناك الهواء ذاته عندنا في الأرض بكثافته أو مقوماته التي تجعل الرايات ترفرف؟ أخذنا نضحك كلانا لأن لا جواب كانت ثقتنا مطلقة بكل ما يأتينا من الغرب... إن كان العلم يرفرف على سطح القمر فلن يكون مستغرباً أن ترفرف أعلاماً أجنبية في بلادنا!؟ هو الاستهجان والغضب لم نكن متقبلين لهذا لكن بدا أن كل ركن من الخارطة السورية خصص له مكان سيطرة غربية عبر تآمرات دولية وبكل أسف وطنية متفق عليها. هو نظام الخصخصة إذاً ربما كان نيل أرمسترونغ ذاك الفاتح القادم من الأرض لغزو فضاء بلا مال، لكن من قال إن فضاءاتنا لا مالك لها؟ البعض لم يكن يعنيه من كل هذا سوى مناطحة الطرف الآخر، إن هي إلا قلوب بلاستيكية

ليس بإمكانها الشعور بذاك الغير الذي هو بالأساس جزء لا يتجزأ من أبناء الوطن ذاته.آه يا ساندريللو هي الخيانات التي مزقت هذا الوطن الكرسي والنعش... ثنائيات عجيبة لكليهما مسامير تغرس في أجساد الشعوب. صدقني يا ساندريللو ما عاد من فرق مابين المارش العسكري والموسيقى الجنائزية، الأمور باتت مختلطة للغاية. حين يغيب الضمير لا يصبح للتساؤل أي جدوى لأن تكون إنساناً مهمة صعبة جداً إن لم تمتلك الضمير الحسرة... هي الحسرة هذا ما كنت فيه تحديداً وأنا مغادرة .أكتب كل شيء... أقول كل شيء... إلا ما أريد البوح به فعلاً... يبقى سجين دعائي للسماء. لم أكن أفكر بنفسي فقط بل بالأفواج الهائلة من النازحين.. أفكر بكل بسيط لاحول له ولا قوة. أفكر بذاك البسيط الذي أشعل حلمه ليتدفأ... فاحترقت معه الحقيقة، أفكر بذاك الذي رسم حلمه على ما تبقى من رماد... وغسلته دموعه وهو يرحل. أفكر بأولئك الذين اختفوا، و لم يكن الرماد أو النار ما أخفاهم... بل ذاك الشق الطويل الذي ألقوا به ما بعد الرحيل، أو تراه قبله؟ وتبقى الحقيقة غامضة يا ساندريللو جاثمة في دفاتر التاريخ إلى حين... قد تمزق تلك الدفاتر أو تقرضها فئران الغايات والمصالح... يوجهون فئرانهم لغزو التاريخ والتهام الحقائق، لا تستغرب فالفئران والجرذان لها دورها... قيل ذات يوم إن بريطانيا قبل رحيلها من مصر قد حملت آلاف الجرذان بإحدى سفنها وأطلقتها في شوارع مصر ليستشري فيها الطاعون، وكذلك الحال إبان الاستعمار الاسباني لوهران. حسناً أنا أستعمل هذه المقاربة بصورة مجازية ذكرت فيها الفئران لا أكثر ساندريللو... أنت سجين حيث أنت... إن كنت تبحث عن متعة الحركة الحرة في التنقل في بلادنا... فأنت مخدوع وموهوم ياصديقي؛ سأفسر لك السبب لأن في أولى خطواتك للمغادرة حتى ضمن بلدك ذاته من مدينة إلى أخرى ستواجه مهانة الحواجز لك... أذكر طريقي الطويل لأغادر مدينتي لأصل إلى مدينة أخرى ومن خلالها أغادر إلى الحدود... طريق بالأوضاع العادية لم يكن ليستغرق أكثر من ثلاث ساعات، لكنني قضيت حوالي 22 ساعة للوصول إلى

تلك المدينة، ولك أن ترى مقدار الألم والمهانة الذي تعرض إليه ركاب الباص، وكيف كانت الحقائب ترمى أرضاً وتبعثر محتوياتها، وأنت تنهر فلا تستطيع أن تعيد أشياءك إليها... ناهيك عن تفتيش السيدات من قبل سيدات مثلهن لكن بطريقة فظة للغاية لا تخلو من بعض المسبات معها... كان الوضع جنونياً للغاية... ربما الارتباك كان هو السبب وكذلك التخوف من الأطراف الأخرى... ساد التشكيك والنهر والفظاظة وكأن كل شخص يرى بالآخر احتمال كونه عدواً له... .مازلت أذكر تلك السيدة الأرمنية العجوز التي لم تكن تفهم العربية، ولا تستطيع الحركة وكيف تعرضت إلى اللكز والشتيمة حين تدخلت إمرأة أخرى مدافعة عنها نالت حظها من الشتائم هي الأخرى، كان أكثر مايظهر على وجوه الجميع هو ذاك الحزن والانكسار... فكرت بالعودة قائلة لنفسي بيتي أولى بي، لكن تذكرت المبنى المجاور لبيتيالذي انهارت شرفته بعد القصف، وجارنا الذي فقد ابنه الشاب وساقيه وتذكرت نوافذ غرفتي التي تحطمت. كان لا بد لي من أن أغادر تذكرت كيف أن آخر مرة حصلنا فيها على الماء بأسعار باهظة من سوتيرات تمر في الشوارع محملة بماء من الآبار، كيف أن أكثر من تسعين فرداً تعرضوا للإصابة بالتسمم... وبالإضافة إلى هذا تذكرت كيف أن خزان الماء لجيراني على سطح بنايتنا قد أصيب برصاصات من القناصة فانسابت المياه منه مما جعل الجيران يتقاسمون ماعندهم من ماء مع أصحاب هذا الخزان... رغم فداحة الأمر يومها؛ إذ أن الحصول على الماء كان كما لو أنه اكتشاف لمنجم للذهب إلا أننا كنا نتبادل التهنئة والشكر لله لأنه لم يصاب أحد منّا برصاص القناصة على سطح مبنانا يومها... حسناً هي الإهانة والشتيمة... سنحتملها على مضض إلى أن نتمكن من الخروج إلى الحدود ساندريللو... ربما يكون العبور من الحدود أشبه مايكون بإطلاق رصاصة الرحمة...بحقيقة الأمر... خارج أو داخل الحدود... الأمر لا يختلف،كما لو أننا نقف متواجهين أمام شريط طويل من أسلاك شائكة، أسلاك متوضعة بعناية لتصيب كل من يمسك بها من أي جهة كانت. هو الموت فعلاً لن ينبض قلب

دون دمه ولن يحيا وطن دون شعبه. أفكر بجدار برلين...وبالأفواج البشر خلفه وأمامه، أعود بذاكرتي إلى مدينتي حلب، تتدافع أمام عيني العشرات من الصورصور لحواجز مابين واحد وآخر ربما ليس أكثر مائة متر .. أكياس الرمل... المجندين الصغار القابعين بخوف خلفها، بعض من وجوه تضحك باستخفاف وتعيق حركة المارة فقط للاستحواذ على بعض النقود أذكر تلك الستائر الممتدة أمام الأبنية ليتمكن الناس من العبور خلفها بعيداً عن عيون القناصة. أذكر المعبر، وتدفق الناس بازدحام مرعب للحصول على حاجاتهم من الخضار واللحم ... وأذكر نذالة القناصة وبعض من حرس الحواجز الذين كان بعضهم يتسلى بإصابة تنكات الحليب. نعم أنا غادرت... غادرت وأنا أعلم بأن أصوات المستغيثين لن تتوقف... لا أحد يأبه لمن يقتل أو يسجن أو يخطف... لن يهتموا بمن يصرخون من تحت ركام بيوتهم المهدمة والمقصوفة... ساندريللو هو جلد الذات ربما لأننا نغادر ولا نستطيع إغاثتهم... أكتب وأكتب... في اللاجدوى نعم هي اللاجدوى...بكل الأسف والألم... لن نتوصل إلى شيء بكلماتنا وصرخاتنا واحتجاجاتنا وو..و

محكومون بالعجز تماماً... شعوب ساستها إمعة لا تنطق إلا بلسان أسيادها. حسناً يا ساندريللو هذا ما نحن قادرون عليه فقط أن نكتب... قد تكون ثرثرة الضمير، ربما هي مجرد ثرثرة... لن نصل إلى شيء حين نكون مصندقين والأقفال مكسورة المفاتيح... أي أمل نراه... هل يدفع الصوت بالأقفال لأن تفتح... صناديق من رصاص كتيم... صعب أن ينفذ منها صوت الحرية. تمتد أصابعي بجموح خيول تأبى أن تلجم.. قد تصهل حتى على صفحات تخترق مسامها تنشب بها كل صرخة ألم.. أي عجز يكبلنا ونرفضه؟ أي حبال نمدها والقاع أبعد ما يمكن الوصول إليه؟كيف لي أن أغيث وأنا المشدودة من أقدامي غير قادرة على الخطو؟ أي عبث هذا وأي إبلاس وأي يأس؟ الحبر.. أسود.. والحبال بيضاء والطريق طيف أو هلام.. والصوت ما زال آتياً من بعيد لا أرض تحملني ولا زمن يدفعني.. كم يئن الشجر حين ترمي

الرياح زهوره بعيداً.ساندريللو... سأكتب لك فيما بعد عن خروجي من الحدود إلى ذاك البلد الشقيق في طريقي إلى غربتي. سأكتب لك أنت رغم أنك قد قلتها لي يوماً قد قلتها لي... ذاك اليوم... ردا على... ..تكلمي... فأنت البصيرة في جوقة العميان ..أقولها لك الآن... .ما أرادوه إن هو إلا عصا... لا لتقودهم بل... ليعثر بها بعضهم... بعضاً لا عليك... ربما غداً يوم آخر... لا ليست مجرد جملة لمارغريت ميتشيل على لسان سكارلت أوهارا... لست مجرد كلمة برواية عاطفية... بل هي جملة يعيشها شعب بكل توقه إلى الأمان. شعب قد سبق له أن خاط أجفانه لأن شمس الحقيقة تلسع... هذا الشعب يتوق الآن إلى بصيرته وضميره ووعيه وقبل كل هذا إلى إنسانيته وأمانه. هذا الشعب البسيط الذي أشعل حلمه ليتدفأ... فاحترقت معه الحقيقة.

ساندريللووووووو... نُهَجَّر يا ساندريللو نهجر... نُقْسَر على هذا... والله ما أردتها غربتي هذه... .ما أردتها يا ساندريللو اعذرني... لم يعد بإمكاني أن أكمل الرسالة... سأكتب لك بوقت آخر أحدثك فيه عن كل شيء اعتن بنفسك...

الرسالة الثلاثون ((30))

عزيزي ساندريللو... أعلم أنك تنتظر رسائلي بصبر ومحبة... لكن صدقني بات الأمر شاقاً عليَّ، ربما أتوق للبوح بالكثير لكن ثمة صمت حتى بالأصابع.. صمت بلغ حد الذهول... مازلت غير مصدقة لما أنا فيه... لما بتنا عليه.

حين غادرت كنت قد تركت بيتي وأنا على يقين من عودتي... أشياء صغيرة تبدو للوهلة الأولى غير ذات أهمية لكنها تفصح عن حالنا بالشيء الكثير حين أفكر بها الآن أغص بضحكة مؤلمةترافقها دموعي... مثلاً تلك الملابس المعسولة التي رميتها بسرعة على السرير دون ترتيبها في الخزانة... تصور أنني كنت أقول لنفسي ستكون مغبرة بسبب زجاج النافذة المكسور. ونباتاتي الحبيبة ستذبل ولن تجد من يقوم بسقايتها لكن لا بأس سأعود بسرعة، جرة الغاز التي حصلت عليها بصعوبة بالغة، ليتني قمت بإعطائها لأسرة فقيرة تحتاجها على الأقل كنت متأكدة أنها ليست من تلك الجرات المغشوشة التي كانوا يفرغونها بطريقة ما ويعيدون ملأها بالماء... الحرب هي المعلم الأكبر لكل المساوئ، وتبقى هذه السرقات رحمة نسبة إلى ما كان يجري من استخدامها بغباء من قبل الجهات المعارضة لقصف الأحياء التي كانوا يعتبرونها تابعة للنظام فيقومون بالرد على القصف الذي كان يستهدف الأحياء السكنية لقسم المدينة القديمة، وكأن الانتماءات كانت خاضعة لتقسيمات جغرافية وديموغرافية بنتيجة الأمر كان الشعب هو المتضرر

الوحيد يا ساندريللو دائما المدنيون الأبرياء هم المستهدفون من كل الأطراف.. لا أعلم كيف هي الأمور عندكم... أنت لم تخبرني بالكثير. أووف هذه الجرة بالذات كنت حائرة بها لم أستطع أن أستخدمها إذ كنت أقول لنفسي مازالت تحمل آثار أصابعه وتعرق كفيه عليها... هذا المجند الصغير ابن صاحب البراكة القريبة من الجامع بالحي الذي أسكن به... كنت أشتري منه الخضار وأقوم بتوصيته على جرة الغاز.. أذكر أنه حملها على كتفه وسار معي طويلاً حتى بيتي، وكان العرق يتصبب منه وحين أردت إعطاءه المزيد من المال رفض وقال لي: فقط ادعِ لي ياخالتي بالسلامة، مغادر أنا اليوم، سأكون على خط فض الاشتباكات. الحرب جنونية ياخالتي... تصوري البارحة أمسكنا بامرأة قناصة كانت أجنبية والله نعم نعم وحق ربي ياخالتي كانت أجنبية شقراء... والغريب أن في الطرف الآخر كان رصاص القنص أيضاً ينهال علينا وعليهم... خالتي أليست الحرب بين طرفين فقط؟ أليس هذا ما كنا نعرفه؟ لكن لا أعلم من أين كان ينهال علينا الرصاص؟ حتى من طرفنا.. الأمور مرعبة لم أعد أثق حتى بمن يجاورني، كنت بإجازة لأن قدمي مصابة علي أن ألتحق بهم اليوم.

مازالت ملامحه ماثلة أمام عيني بوجهه الفتي وعينيه الخائفتين.

ستدعين لي خالتي؟ أنا يتيم الأم.

كنت أؤكد له هذا وسألته عن اسم أمه

_ أحمد ابن خديجة لا تنسي يا خالتي.

ساندريللو كنت أطمئنه وأنا أشجعه وأحاول تهدئته كانت قدمه ما زالت تؤلمه بعد إصابته.

لماذا يجبرونك على العودة قبل أن تُشفَ تماماً... لن تستطيع الركض بحالتك هذه.

_ خالتي تعلمين الوضع جيداً... ليس لدي ما أقدمه من مال لهم تعلمين بشأن ضباطنا، الإجازات بالرشوة فقط... الفقير لا إجازة له من الموت.

الحجي ليس باستطاعته أن يقدم الأكثر، لدي أخ آخر مجند.

آه يا ساندريللو كم يؤلمني ما أذكره!

كانت ملامحه طفولية للغاية وجسده الهزيل مازلت أذكره بخطواته المائلة ..

حين كنت أنظر إليه دامعة العينين وأطبطب على كتفه أخذ بيدي، قبلها بقوة وهو يبكي:

_ادع لي يا خالتي .

كان يرتجف فعلاً هذا الفتى الذي عرفته طفلاً يقوم بتوصيل الأغراض لبيتي... حين عدت بعد أيام إلى البراكة ذاتها بادرني أخاه بحزن:

_لم يعد أحمد هنا، مات ياخالتي، استشهد منذ يومين هو وابن عمي في حلب القديمة... استشهد وهو يقاتل وابن عمي الآخر استشهد من القصف على الحي الذي يقطنه مات هو وزوجته وأطفاله... مازالت جثثهم تحت الأنقاض.!

لم أكن أصدق ما أسمعه كنت فقط أسمع صوت أحمد وهو يطالبني بالدعاء له...

ساندريللو هل أصابك يوماً ذهول جعلك تركض وتتوقف في وسط شارع تتدافعك أيدي المارة؟ هذا ما كان من أمري... كان من الجيد حينها أن لا سيارات تمر ولا حافلات حيث كنت أسير بطبيعة الحال كان من المتعذر الحصول على البنزين والمازوت.

سارعت بالعودة إلى بيتي وطنين هائل بأذني..كنت أسمع صوت الشاب متسائلاً عمَّا أريد شراءه وأنا أسير لا ألوي على شيء.

فقط كلماته... كلمات أحمد وعينيه الباكيتين وقبلته على كفي وهو يطالبني بالدعاء له... تكررت هذه الصورة آلاف المرات ربما، يومها يا ساندريللو انهرت على الكرسي، وأنا أجهش بالبكاء كنت أضرب رأسي بيدي، وأضرب على الطاولة بكلتا يدي.. شعرت يومها بالاختناق وبالحرقة تزحف كحبل شائك من خلال رئتي إلى أنفاسي، كرهت نفسي رغم أنني بريئة من موته؛ لكن كنت أتساءل ألم أكن أدعو له طيلة هذه الأيام بصدق؟ بل دعوت والله.. دعوت ودعوت كثيراً فهذا الطفل آمن بدعائي كما لو كنت أمه، تساءلت عن ذاتي هل أنا جديرة بأن يسمع الله دعائي؟ كنت مثلي مثل كل البشر.. ربما لسنا أتقياء بما يكفي، وأقصد هنا ربما ما يعتقده البعض من أداء طقوس العبادة، لكن ماذا عن قلوبنا ونقائها حين نطلب الأمان والسلام للجميع...

آه ساندريللو حينها التبس عليَّ الأمر كثيراً، كنت أحاسب ذاتي وكأنني أنا المذنبة بموته.

جرة الغاز مازالت جاثمة مكانها في المطبخ، أذكر أنني جثوت على ركبتي وحضنتها بألم وتلمست كل جزء منها وكأنني ألمس كفّي أحمد... وكأنني أريد أن أشعر بأنه مازال منتمياً إلى الحياة..

ساندريللو...

ما أبعدني يومها عن احتضاني لها، وجعلني أنهض بخوف هو صوت القذائف التي كانت تجعل أرجاء البيت تهتز.. هرعت حينها إلى الممر في وسط البيت محتمية بجدرانه، علمونا أن أفضل الأمكنة هي هذه الأمكنة بعيداً عن النوافذ والأبواب وبالقرب من الجدران الأساسية.

ساندريللو...

صوت القذائف جعلني أردد بصوت عالي... حيث أنت يا أحمد هو العالم الأفضل.

حين أصبحت في المطار في ذاك البلد العربي الشقيق، واجهت حرباً من نوع آخر، كانت الاستهانة بكوني سوريّة، حين مددت يدي لأدفع نقوداً بالعملة السورية للحمال العنصري الذي رمى بها بوجهي صائحاً:

"ادفعيلي بالدولار شو بعمل بعملتكم الزفت عملة" وكرر حينها عدة كلمات وشتائم جعلتني بقمة الغضب.. الدولار؟ وكأنه كان بإمكاني حينها أن أستبدل النقود بسهولة، وأنا بحالة فرار من نيران الحرب، ومكاتب صرف العملة مغلقة، والتوصل إلى هذه الترتيبات.. كان أمراً بغاية الصعوبة. ناهيك عن حالة عدم الأمان التي كنا فيها، سرقات وتربص.

تصور يا ساندريللو أن أحد أصدقاء ابني حين قام بصرف مبلغ مليوني ليرة وتحويله إلى دولارات، وهو مبلغ كان كبيراً جداً في العام الذي نحن فيه، واجهه ملثمان بسلاحهما وأخذاه منه عنوة..

كنت أجد صعوبة بالغة بتحويل النقود إلى ابني خارج القطر.. مكاتب الصرافة مغلقة، وكان من حسن حظي أنه مازال لدي بضعة آلاف من الدولارات، لم تكن بين النقود السورية التي كنت أحتفظ بها مع مصاغي بالغسالة بين أكوام الغسيل، قبل أن ان أغادر البيت كل يوم خوفاً من سرقتها. تلك النقود التي كانت رغم حزمها بأكياس النايلون قد تضررت تماماً حين نسينا وجودها أنا وابنتي بعد مغادرة الجنود لبيتي بعد حملة تفتيش طالت المباني المجاورة كلها.. كنا نرى بعضهم وقد مارسوا دور المرتزقة، وحملوا معهم اللابتوبات والمصاغ من بعض البيوت التي كانوا يقومون بتفتيشها.. ليس الجميع بالأشراف كما أن

ليس الجميع بالسيئين، لكنها الحرب يا ساندريللو... كنت قد طلبت من ابنتي تشغيل الغسالة مستغلة فترة تشغيل الأمبيرات للكهرباء وللسنترفيش لسحب المياه، مع الغسيل، كانت نقودي تغسل أيضاً هو غسيل فعلي للأموال إلى درجة التلف.. غسيل ساذج جعلني أرمي بعيداً بفئات الخمسمائة التي اهترأت تماماً، وأحاول إنقاذ الباقي عبر تشغيل السيشوار، من مميزات الأمبيرات، أنني استطعت فعل هذا.

صدقني يا ساندريللو أنني يومها أجهشت بالبكاء بكل عجزي وحيرتي وشعرت بضعفي وسط مدينة تشتعل بالنار والخراب.

نعم كان غسيل أموال يختلف كلياً عن ذاك الغسيل الذي يمارسه السؤولون، شتان ياساندريللو...

ساندريللو أكتب لك غداً فأنا مرهقة جدا الآن، وسأطلب من موظف الاستقبال في الفندق أن يوقظني في الخامسة صباحاً لأستطيع اللحاق بالطائرة.

غداً سأكتب لك.

الرسالة الواحدة والثلاثون ((31))

عزيزي ساندريللو...

عذراً لتأخري بالكتابة إليك.. صدقني أحتاجك أكثر مما تحتاجني في خضم هذا المس الجنوني من الأحداث.. لا أعلم تماماً أين أنا من كل هذا! أحاول تجميع أفكاري ولا تلبث أن تنزلق، يقولون إن الدماغ عبارة عن تلافيف سنجابية دقيقة، لا أدري كيف لها أن تختزن هذا الكم الهائل من الصور والأحداث والمعاناة، ثمة أمور أفقد تركيزي بها لا لشيء إلا لأنها أكبر قدرة على أن تصدق. أفكر أحياناً بصورة طفولية هل تتسرب بعض المعلومات تحت هذه التلافيف؟ وماذا عن استردادها فيما بعد، هههه لا لا تقلق ساندريللو لا أقصد بهذا الزهايمر... لكن صدقني ساندريللو حتى عقولنا أحياناً تمارس نوعاً من الخداع فتخفي عننا بعض المعلومات نتناساها إلى حين... هو نوع من الحماية التي يلجأ لها العقل ليجنبنا آلام تذكرها... سأخبرك عن هذا فيما بعد نبحث عن الحقيقة بين كل ما يجري، وكأننا نبحث عن الوجود في العدم.لا أحد يعد بالحقيقة، لا شيء يعد بالحقيقة الوعود هي تلك الطيور الجاثمة على الأسلاك سرعان ما تحلق من جديد. نحن قيد الانتظار والزمن صفر! حين نفتش عما يحدث نجد أن الأمور باتت قاب قوسين من الاكتشاف، ربما نزيل التلافيف والطيات لنفهم ما هو مستتر بالداخل.. لن يسرنا اكتشافنا.. ليس بالضرورة أن تعجبنا تلك الاكتشافات قد تخضع ربما لقانون النسبية فما يعجب طرف ليس

بالضرورة أن يعجب الطرف الآخر... كل على حسب هواه بكل أسف هي الحياة، تماماً كالأنكينار. أحملها بيدي... توخزني رؤوس أطرافها، أزيل وريقات قشرتها واحدة تلو الأخرى، أصل إلى دائرة الثمر، أشعر بالوبر الشوكي فيها، أنتزعه منها، قطعة الأنكينار بيدي، مرهق للغاية ذاك الوصول إلى اللب. السواد على أصابعي وبعض من اللزوجة، أغسل يدي وأغسل الأنكينار، أتأملها، أضعها على الصحن، أبعده جانباً من قال إنني أحب الأنكينار؟ الأمور هكذا، مابين الأشواك والسواد عليك أن تبحث لتصل إلى الجوهر... بعض لن يأبه وبعض الآخر يتلقف وآخرون يهربون من الحقائق... ليست القيمة الحقيقية للأمور فقط بماديتها إنما الخسارات كل الخسارات قائمة في مفاهيم المعاني المجردة، حين نقول ضياع وطن... ليس فقط بضياع أرضه وشعبه بل ثمة ما هو أبعد من هذا؛ هو صراع القيم المجردة كالانتماء.. الخيانة.. التمسك بالهوية.. الأمل بتحقيق الوعود.. مؤلم فعلاً ما بات عليه الأمر الآن أن تتشارك الجنسيات المختلفة بلادنا، وأن نكون متحلقين نحن حول دوائر الاستبعاد والمعاناة. لكن بنتيجة الأمر أكثر الناس شرّاً هم أغباهم.. لم يدركوا معنى الخسارة بعد. الآن ساندريللو في اللاجدوى وبعد المحاولات العديدة إفهامهم أن الحقيقة ليست بجاثمة على رؤوس أنوفهم بل تتعداها بكثير ستُصدم بأن للكثيرين قبعات يزهون بها، قبعات كاتم الذكاء تلك القبعات التي تخدر فيهم العقل والمنطق، دعهم. اتركهم ليفهموها فيما بعد.. هو الزمن.. ربما سيفهمونها مع الزمن... المؤلم هو هذا الصراع.. افهمهم أنت واصمت... بغبائهم دعهم يختالون.. فقد حاولت وحاولت دون نتيجة. ساندريللو حين ترتبط الأمور بالعقل والمنطق ستجد ما هو أكثر إدهاشاً كيف للاجدوى أن تتحول مع الزمن كعامل تحريضي إلى نقيضها تماماً؟ ما هو عدم اليوم قد يصبح شيئاً له وجوده.. تستغرب ساندريللو أنني قلت لك قبل قليل بما بدا حينها نوعاً من السلبية "أن تبحث عن الوجود في العدم" نعم قد قلتها لك، لكن حالة السبات هي حالة خامدة بثباتها إلا إن تخللها

عامل تحريضي يمثل اليقظة... تلك الومضة التي تشعل بريق الحياة حينها يمكن تحويلها من المستحيل إلى الممكن.. أعلم أنك تضحك الآن يا ساندريللو وتهز برأسك كما لو أنك تقول: "صعب" أفهمك تماماً تمسك الصفر بيدك.. تفتته، صعب أن تفتت صفراً؟ صدقني صفرك هذا قابل لأن ينجب آلاف الأصفار... كما العدم يرسخ حوله هالات من عدم أكبر ربما الفيزياء قادرة على إقناعك أن لا مستحيل... لكن ما هو أبعد منها هو قدرتك على التصديق ... أن تصدق أن الصفر ليس عقيماً. وأن الصفر قد يكون ورقتك الرابحة... فقط أن تفكر أنك قادر على استنساخ معجزتك تلك معجزة استنباط وجود من العدم... كما الفكرة الوليدة، كما الأمل أو حتى كما القرار ستحول الصفر إلى رقم ستحول العدم إلى وجود... فقط هي اليقظة والإرادة.

ساندريللو لن أيأس، كريهة هي فكرة التسليم بالأمر الواقع وبالعجز... لم تنهض الأمم بفكرة التسليم بأن هناك من هو الأقوى منها، هي الدورة الزمنية للحضارات لنشوئها أو لتماوتها منها دروس البشرية الأولى ساندريللو هي الظلمة الآن نعم تبدو الأمور مبهمة، الالتباس يحيط بنا بأفكارنا، ربما نحتاج إلى زمن لنتعداها، رغم أن الزمن أخذ كفايته من القبوع نعم مازالت العتمة هي المسيطرة، هي ذاك الإبهام نحاول أن نتعداه نعم ساندريللو لكن كيف لنا أن نتعلم القفز فوق الظلال دون أن تغمرنا العتمة؟ أجبني! سأجيبك أنا: لا بد من أن نقفز فوق تلك الظلال، فوق تلك الخطوط لنصل إلى الطرف الآخر منها.. إلى النور. يردد الكثيرون ذاك المصطلح الممجوج بكلمة كنا وكنا لكن؟ أيها أصعب؟ أن نكون؟... أو أن نصبح؟ دعنا ننسى تلك الاستدارات والالتفاتات إلى ماضٍ بات عقيماً، ولنفكر بفعل آخر هو أن "نصبح" المأساة أن ما أصبحنا عليه الآن لا ولن يرضينا فلنبحث عن كلمة ترتبط بخط زمني آخر متعلق بامتداد نحو المستقبل في كلمة سنصبح ولنصبح... هو صراع وجود حقيقي أكون أو لا أكون تلك هي المسألة...

قالها شيكسبير على لسان هاملت... الذي بحث عن سر وجوده في الحياة راعات والتناقضات .. برأي لم يعد كافياً فقط أن نكون كصيغة وجودية تثبت ذاتها بل الأهم من هذا هو ماهية هذه الكينونة.. الأهم الآن بعد كل ما مررنا ونمر به أن نفكر جيداً وجدياً بكيف نصبح ومن نصبح... فقد طال الأمد في استدامة السلبية والذهول في عقولنا الشرق أوسطية بكل أسف.

الرسالة الثانية والثلاثون ((32))

عزيزي ساندريللو...

منهكة كانت رحلتي للغاية... حين وصلت إلى نقطة حدودية توجب علي النزول فيها لإجراءات التفتيش مع من كان معي من الركاب... أسوأ الأمور تحدث بسبب رعونة غير مسؤولة من أطراف جاهلة تكون هي الطرف المسبب لتغذية النزاعات الشعوبية والطائفية بين أبناء الوطن الواحد وتحديداً بين أبناء الأقطار الشقيقة، ليس بالضرورة أن تكون فئة ما هي الصورة المعبرة عن مجتمع كامل، لكنها قد تكون ذاك النخر الذي يتسع وينتشر أكثر إن لم يكن هنالك وعياً لتقويمه وتلافيه. طالت فترة التفتيش وكان حظنا عاثراً أنا وباقي الركاب بمن فيهم من عجائز لم يكن باستطاعتهم الجلوس بشكل القرفصاء لا أعلم فيم كان يفكر رئيس تلك المفرزة الحدودية المتعنت ليتصرف بذاك الشكل المقزز مع أن هذا الشعب لطالما كان مميزاً بدماثته وذوقه.

ساندريللو؛ صعبة هي مراوغة الذات حين ندعي أننا بخير... لا لسنا بخير على الإطلاق وكأن الزمن لا يعد إلا بالقلق.. حتى أصبح القلق بداهة... تلغي معها أي ترقب، لا وجود لكلمات قادرة على التعبير عن تلك الغصة الممزوجة بالذهول والقلق. حالة مضمخة بالغرابة المريرة ندور في حيرة التماهي، تماه قسري مع الواقع.. تماه يفصلنا عن حقيقتنا.. فنغدو كالهيولى نسبح في ذهول تساؤل قد جمدته

الأزمنة وتركته معلقا كما الأحاجي... تبقى ومضات متنقلة في كل بريق منها نحسب أننا قد أدركنا الجواب. ليس أمامنا سوى التروي لنصبح قادرين على الفهم فالتروي هو أبلغ حكمة.

ساندريللو آه ساندريللو كم أنت حليم معي! أدرك أنني أجنح بأفكاري بطريقة مرهقة، نعم أدرك هذا لكن ما العمل؟ هذه هي أنا تلك المتنقلة زمنيا دائماً، أتأرجح بعيداً عن قوانينه، بعيداً عن حصاره. أعود من جديد إلى تلك الليلة العجيبة؛ حيث كنا مضطرين للوقوف بكل تعبنا وعجزنا، بعد تكرم رئيس تلك المفرزة الأمنية الحدودية علينا بهذا بعد أن أرغمنا على الجلوس بالقرفصاء، وهذا بعد صدور جلبة قوية من بعيد أصوات تراشق الرصاص، والاشتباكات بين عدة جهات. بداية الأمر بدا وكأنه ظهور مفاجئ لقوات داعش، مما أدى إلى اضطراب الجميع وسادت حالة من الذعر ترافق معها صوت نباح قوي للكلاب وصادف أن رن جهاز المحمول لأقوم بالرد على ابنتي التي أرادت الاطمئنان على وصولي، وترامى إلى مسمعها صوت الاشتباكات القوي مع أصوات الناس الهلعة بقربي، كان من الواضح جداً أن الأمور ليست على ما يرام مما جعل ابنتي تبكي بخوف، وأنا أحاول طمأنتها بأن لا شيء مما نعيشه الآن أسوأ مما عشناه ببلدنا، فالأصوات هنا مازالت بعيدة..كان يتردد اسم جماعة الشيخ الأسير.. ربما كنا بسوريا غارقين في هلعنا ومعاناتنا اليومية بسبب الحرب فاختزلنا العالم كله بنقطة واحدة وهي حرب لعينة لا نستطيع منها فكاكاً. ساندريللو مؤكد أنك كنت متابعاً أكثر مني لمجريات الأمور في الأقطار المجاورة.. رغم أن حركة الشيخ الأسير كان جزءاً منها مساندة للثورة السورية إلا أن الكثير منّا لم يكن عالماً بأي شيء، بل حتى كأننا بعالم ثان معزول تماماً بعتمته، بعيداً عن الكهرباء والإعلام كانت الأصوات الوحيدة التي كنا نسمعها هي أصوات القذائف والاشتباكات.. المهم ساندريللو أننا في هذا اليوم التعس عشنا خوفاً من نوع آخر وبدا الاضطراب واضحاً أيضاً على وجوه عناصر تلك المفرزة الأمنية الحدودية فعلاقة الشيخ

الأسير وجماعته المؤيدة كانت بحال نزاع دائم مع أفراد الجيش اللبناني وحزب الله. مع أصوات طلقات الرصاص كان الذعر يسود على وجوه الجميع،كان من الممكن سماع صوت أنفاسهم المتسارعة.كنت أسمع صوت تمتمات بالدعاء أخذت إحدى العجائز تمتم بصوت مرتجف بينما أخذت شقيقتها العجوز الأكبر بالبكاء... ساندريللو كنت مسمرة تماماً.. نعم مسمرة أنا كالذهول، مازلت أرنو بناظري إلى ذاك الخط الآخر من الدهشة هنالك في البعيد مشدودة تماماً كأكثر الخطوط استقامة الى نقطة الفرار.. ولا فرار.. أعلم أن المعنى مختلف جداً ما بين تلك الإحداثيات التي نعتمدها في رسوماتنا وبياناتنا الهندسية بدءاً بنقطة فرار مفترضة وما بين نقطة للفرار حيث المدى الأبعد بعيداً عن إرهاصات الخوف والقلق والتوتر ساندريللو حين نرسم خطوطنا بدءاً من نقطة افتراضية... نعلم أننا قادرون على الإمساك لو افتراضياً بهيكل لما كان بخيالنا ليصبح قيد التنفيذ ننطلق من الخيال إلى الواقع... لكن ماذا عن رغبتنا الحقيقية في الفرار؟ هي هو الفرار فعلاً أم الانعتاق؟ حين ننظر عبر يأسنا إلى البعيد حالمين بغد أفضل... منطلقين من افتراضنا فقط... تلك هي نقطتنا المفترضة فقط مجرد توقع... توقع في غمار المجهول... لا ندري أين ترسي خطوطنا... لن يكون باستطاعتنا رسمها باستقامات متناظرة عبر توقعاتنا... فللمجهول خطوطه الملتوية، التواءات تحمل معها قلق الانتظار وترقب لما نعلم سلفاً أنه لن يكون. لن أطيل عليك يا ساندريللو، احتاج الأمر حوالي تسع ساعات حتى استطعنا مغادرة الحدود. الغريب في الأمر يا ساندريللو أنني كنت على عكس غيري هادئة تماماً، بل ربما حتى ماكنت أنتظر أي شيء.. مسلوبة تماماً من وعي التمييز للحالة... وكأن الأمور ماعادت تعنيني... مرهقة أنا حتى الاستكانة.. لا ليست حالة سلام مع الذات، بقدر ما هي حالة تعب اللامبالاة، وكأن لم يعد من شيء يهم... حين غادرت... غادرتني تلك الأنا التي كنت أعرفها. تركتها هناك... تصور ساندريللو أنني أسأل نفسي الآن عنها! ربما مازالت هناك رغم المطر، واقفة على شرفتها تلك ملتفة بشالها الأزرق تحتسي قهوتها كما عادتها

تنتظر بزوغ فجر له لون القرنفل الوردي.. نعم نعم ساندريللو أحدثك عن تلك الأنا التي تركتها خلفي هناك. بات صعباً للغاية أن أحملها معي.. متعشقة هي بجذورها كان لا بد لي من الانسلاخ عنها بصعوبة. أتدري ياساندريللو بعيداً عنها أشعر وكأنني مجرد لبلاب ملتصق بها وأنا التي انتزعت عنها قهراً... كانت هي حقيقتي وبعيداً عنها ما أنا إلا ظلها. أترانا تغيرنا يا ساندريللو؟ أنكون نحن؟ هل نحن كما الشجرة الحقيقة واللبلاب لنا النسغ ذاته؟ أم بعيداً عن تماهينا والتصاقنا نصبح مجرد حالة شيزوفرينية لها أساسها الأولي الواحد فقط؟ ساندريللو أجبني يا ساندريللو... أنا خائفة.. حقاً أنا خائفة فما زلت أتساءل عن ذاتي هل هي أنا حقاً؟ هل سأبقى أنا؟ أجدني لاأعرفني... لا تضحك أرجوك... تباً لك وللفافتك اللعينة أعلم أنك تدخن الآن وأنت تضحك أو ربما تقهقه... لكن هذا لا يمنع من كوني خائفة... مازالت كلمات ذاك التونسي تتردد بداخلي "لقد هرمنا" نعم لقد نظر في داخله وفي داخل أمته وقالها فماذا عنا نحن؟ ماذا عنا؟ ساندريللو...

لقد تمزقنا... سلخنا حتى عن ذاتنا تلك القابعة هناك سنشتاقها... لن نعود كما كنا... والسؤال الأكثر دقة قد كنا يوماً فهل سنصبح أم سنكون أم... أن هذه ال "نحن" لن يكون لها وجود؟ سلام صديقي ساندريللو أكتب لك فيما بعد ربما بعد وصولي إلى تركيا.

الرسالة الثالثة والثلاثون ((33))

عزيزي ساندريللو...

تأخرت عليك بالكتابة... أعتذر، كان علي أن أقوم بالكثير في الفترة الماضية رحلة جديدة بكل معاناتها، الوصول إلى مرسين لم يكن سهلاً لكنه كان الخيار الأسلم والأفضل، مدينة ساحلية رائعة ولا تخلو مشاهدها الطبيعية الجميلة من السحر كونها قريبة من الجبل أيضاً.. البعض كان يسميها مدينة المتقاعدين الهادئة؛ لكنها مع الوقت لم تبقَ كذلك بل اشتعلت بالضجيج والنشاط بسبب أفواج المهاجرين... ربما أكثر ما شدني إليها وجعلني أشعر بحميمية المكان هو وجود الجالية السورية فيها بكثرة، لم يكن هذا التواجد فقط بسبب الهجرة والنزوح إنما كان لعقود طويلة سابقة، إذ لطالما كان التعاون التجاري والتقارب الاجتماعي قديماً بين هاتين الدولتين، وفي السنوات العشرين الأخيرة كانت تجارة الألبسة الجاهزة من أساسيات التعاون الاقتصادي ما بين هذين القطرين، ساندريللو لا تتخيل حجم هذا التبادل التجاري الذي كان سائداً ما قبل الحرب، حتى أن الكثير من الشركات كانت تعتمد على الورشات السورية بحلب، بسبب رخص الأيدي العاملة وبالتالي رخص المواد كانت تركيا تستفيد من فرق العملة وتدني الأسعار فتستورد الأساسيات من الشاي والسكر والأدوات الكهربائية والموبايلات والساعات والسجائر والعطورات؛ لتدخلها إلى الأراضي التركية عن طريق التهريب وبشكل خاص كان النفط والمشتقات النفطية من بنزين

ومازوت من أهم ما كانت يستفيد منه التجار الأتراك فكان يتم تعبئة السيارات بشكل مكثف لقرب الحدود. هل تعلم يا ساندريللو أن بعض التجار الأتراك قاموا بمشاركة صناعيين من حلب لفتح معامل للسجاد وصناعة الألبان لأن كلفة النقل من حلب إلى أضنة وعنتاب أقل كلفة من تلك التي إلى استانبول..؟كان هذا التعاون مثمراً بكثير من النواحي ونشطت التجارة بشكل كبير، وأتيح للكثير من الناس الاستفادة من هذا، فأصبحت التجارة مورد رزق ومع الوقت غطت المنتجات التركية الأسواق، وكانت تمتاز بانخفاض أسعارها وجودتها فاستفاد الناس منها إلى أبعد حد تصور يا ساندريللو أنه بتلك السنوات الأخيرة كان الفقير كما الغني يستطيع أن يشتري كل ما يحلم به بأسعار معقولة، أذكر بعض الشباب الذين تزوجوا وأسسوا بيوتهم بشكل مريح حتى العرائس كن يستطعن التبضع بشكل مرضي، وعلى ما أذكر كنا نرى الموديلات ذاتها من الألبسة وبجودة معقولة تماثل تلك التي تماثلها بالشكل وتكون بعشرة أضعاف ثمنها... بفترة ما كان سوق الخالدية وشيحان بحلب مركزاً حقيقياً للتبضع بأفضل الأسعار، وكنا نرى البضائع ذاتها مع فارق رهيب بالسعر في بوتيكات موزعة في باقي الأسواق والأماكن الراقية. لكن مع الوقت لم تستطيع الكثير من المنشأت الصناعية المنافسة؛ فاضطرت للإغلاق والتحول إلى نوع آخر من الصناعات، بل حتى أن البعض منها قد توجه فعلاً إلى تركيا وقام بفتح منشأته هناك والدخول ببضائعه مرة أخرى على أنها بضائع تركية.

آه يا ساندريللو أحدثك عن التجارة وعن حال الناس ما قبل الحرب وعن استفادة بعض سكان الأقطار المجاورة من منتجات النفط في حال سفرهم إلى بلدنا لكن الفرق كبير ما بين الاستفادة الهزيلة التي كانت تتم وما بين السرقات الحقيقية للنفط السوري طوال عقود طوال دون محاسبة... لا أعلم كيف هي الأمور عندك ببلدك لكن وكأننا دائماً في نقطة الوسط كذلك تكون الحال في تلك الدائرة المتوسطية لشرقنا أو غربنا لافرق.. أتعلم يا ساندريللو أراني وكأنني أشبه الوضع

بمدور معدني ثبت في نقطة ما ويدور ويدور ليرسم الدوائر ومركز الضغط كله على تلك النقطة الثابتة التي يقعرها بوجوده وارتكازه... شيء يطحن إنسانيتنا ويسحقها حتى العمق... أن نحرم مما نملك بل والأكثر من هذا أن لا نعلم أين تذهب أموال وخيرات بلادنا... الحياة مأدبة كبيرة في عالم قذر... يأخذون ما يستسيغونه ويتركون الفتات للقمامة... أيدي الفقراء تقتات من حاويات فتاتهم وما تبقى.. لك أن تعلم بأن العالم أمسى كدرجات مسخت فيها أشكالنا البشرية وباتت على شكل خرفان وهررة وفئران... بل حولوا الكثيرين من البشر إلى مايكون برأيهم أقرب للحشرات يكفيها أن تتهالك على فتات الفتات... حتى الدونية التي وصلنا إليها باتت على حسب تقديرات الطبقة المنتفعة الأولى وتكرمهم علينا بها.

ساندريللو...

أعلم أن ما أقوله مؤلم... تصور ساندريللو أحسست الآن بخجل من أن آكل أي شيء رغم جوعي الشديد، حتى كوز الذرة المشوية الذي أمسك به الآن بعد أن شدتني إليه رائحة شوائه المميزة التي أعادتني عقوداً بعيدة إلى طفولتي حيث كنت أبتهج وأهرع لمرأى بائعي الذرة من بعيد وهم يقومون بشيها على منقل من الفحم وبجانبه أيضاً برميل البليلة المسلوقة..آه يا حلب... كم تجتاحيني بذكرياتك.. لكنني تذكرت شيئاً آخر جعلني أشعر بغصة كبيرة؛ برميل البليلة المسلوقة ذكرني بمساء يوم تواجدت فيه مع ابنتي الصغيرة وصديقة لي في سوق شيحان، كنا نذهب أحياناً للتبضع من المنتجات التركية والصينية من فناجين وتماثيل جميلة من الريزين، ونجول بين بائعي المجوهرات التقليدية فأنا أحب أقراط الفيروز واللؤلؤ الصناعي وكانت تمتعني رؤية تلك القطع الجميلة المستكينة بدلال بين بريق الماس ولمعان الفضة أو الذهب، وطبعاً كلها كانت مجرد مجوهرات تقليدية تبهج النظر وكانت تعرض بأسعار بسيطة تمكن المرأة من الحصول عليها. قد يبدو لك أنني قد ابتعدت قليلاً عن موضوعنا

الأساسي... لا مطلقاً يا ساندريللو فما أريد قوله لك إنما هو ضمن صميم ما كان يجري فقط ما نقلني إليه هو ذاك التداعي للأفكار... رائحة شواء الذرة وبرميل البليلة، كان علينا أن نفهم أن الفوضى كانت قائمة حقاً قبل الحرب. كانت البلاد غارقة تماماً في ذاك العبث والفساد... حيث التسيب القائم وحيث تسلط ما نراه الآن وقد اتخذ شكل عصابات... كان علينا أن نفهم أن صمت الخوف هو المشجع الأول لكل ما يحدث... سأحدثك بما مررت به ذاك المساء أمام بائع المجوهرات التقليدية في ذاك السوق الشعبي حيث لكل بائع ركن صغير يفصله عن غير الأركان بساط صغير وبضع لمبات خاصة تتراقص في الهواء وكأنها تشير إلى اسم ركن هذا البائع دون غيره... السوق كان عبارة عن أرض كبيرة فيها مئات البسطات والأركان يتوزع فيها كل من أراد أن يرزق قوت يومه... الغريب أننا نرى بعض الأحيان بعض عناصر الشرطة تداهم هذا السوق وتأخذ برمي وتكسير بضاعة البسطاء الذين لم يستطيعوا الحصول على إذن للبيع ولا أقصد هنا إذن من الحكومة بل من مافيا السوق ذاته فكل بائع لديه مبلغ معلوم متفق عليه ليدفعه كما لو كان فريضة للبلطجية... لا تستعجل ساندريللو... هه ولا تضحك أيضاً، أعلم أن الزمن لديك خط مستقيم بلا نهاية.. نعم فقد أخبرتني برسائلك أن الأوقات تساوت كلها عندك... ربما عندي الموضوع مختلف... الزمن عندي لم يعد كما كان شبيه بالخطوط البيانية بل بات كما خطوط الزيك زاك متكسر دائماً بمفاجآته.. المهم ساندريللو حسناً لا ليس كما تقول لي أنني بت بالنسبة إليك كشهرزاد أمتعك بما أقصه عليك وأطيل في سردي... لا قطعاً ليس الموضوع كذلك وإن كنت أتمناه... ساندريللو نحن نحاول أن نبتسم أو أن نختلق أي موقف يجعلنا نشعر بالحياة لنغالب بؤسنا؛ لكن الحقيقة مرة دائماً. المؤسف أن ما أقوله أو ما أنقله لك ليس بالممتع.كنت أشير إلى البائع إلى قرط أعجبني فلفت نظري فتاة بسن الثانية عشر تقوم بسرقة عشرات

الخواتم والأقراط وصاحب المكان غافل عنها.. نهرتها صديقتي بحزم فتجاهلتها اقتربت من والدتها وهمست لها أن تنهي ابنتها عن هذا فنظرت إليَّ بتحد أشرت فما كان من صديقتي إلا أن نبهت صاحب البضاعة الذي همس برعب وهو مطأطئ برأسه: (دعوهن هذه ليست أول مرة، ولا أريد مشاكل رجاء يا أختي تجاهليهن) وما حدث بعد هذا كان أمراً غاية في الغرابة. ليس لدي الوقت الآن سأكمل لك فيما بعد فقد حضر ابن موظف الاستقبال في الفندق ليأخذني إلى أحد المكاتب العقارية، أحتاج أن أستأجر شقة صغيرة لفترة إقامتي هذه. أكتب إليك لاحقاً. أنا بانتظار أخبارك... لا تتأخر.

الرسالة الرابعة والثلاثون ((34))

عزيزي ساندريللو...

كيف حالك... يبدو لي وكأنه مضى وقت طويل على آخر تواصل بيننا... أعتذر منك لم أكن أجد الوقت الكافي للرد على رسائلك رغم أنني كنت أقرؤها كلها... كنت مطمئنة عليك إذ كنت تبدو متماسكاً وهادئاً ربما هو نضج الحالة التي تجعلنا متماسكين ومتأقلمين... أترانا رُوضنا؟ أم هو استعياب الواقع؟ أذكر بداية دروس مادة الفلسفة في مرحلة الثانوية والدرس الأول تحديدا كان شيئاً متعلقاً بالذكاء الاجتماعي وكيف أن أولى علامات هذا الذكاء البشري هو التأقلم مع المحيط... قد لا يكون قبولاً، بل ربما يحمل في طياته الكثير من الرفض لكنه ذاك الدهاء المكتسب الذي يفرضه ظرف ما في زمن ومكان يتطلبان من الإنسان أن يكون على حنكة ودراية بتسيير الأمور... بما معناه إن لم يكن ما تريد فأرد ما يكون... ولكن يا ساندريللو بالنسبة لأشخاص مثلنا، ثمة جملة رديفة نردفها بما سبقها (على أن نحول ما هو كائن إلى ما هو جدير بما نريد). المهم كنت أجد برسائلك الأخيرة نوعاً من الهدوء لكن ما كان يبهجني فيها هو إلحاحك على أن أكمل لك ماحدث في سوق شيحان مع تلك السارقة الصغيرة... كنت تكتب لي وتسألني باستمرار ماذا بعد ولماذا تغاضى ذاك البائع عن سرقة بضاعته وما هو سر خوفه...

آه يا ساندريللو أحياناً لتفهم مايجري لشعب يكفي أن تفهم مايحدث لفرد من هذا الشعب... نموذج ما يشرح الكثير... الضغط.. الخوف... القلق.. السيطرة.. التحكم... الاحتكار... التهديد. كان الرجل خائفاً فعلاً، والغريب في الأمر أن تلك المرأة والدة السارقة كانت تنظر بتحدي ووقاحة، والتحدي الأكبر كان من قبل بنتيها اللتين تجاوزتا العشرين من عمرهن وتبدو عليهن الخشونة والضخامة، وبدأت إحداهن بعمل إشارات تهديد بيديها والثانية تتابعنا بمسبات لاذعة... الموقف كان صدامياً وغريباً للغاية.. بحقيقة الأمر أنا شعرت بخوف استغربته أنا نفسي كيف أخاف من هذه النسوة لكن ربما تمتمات البائع ورجل آخر كان شاهداً على الوضع جعلني أستشعر خطورة الموقف.. ساندريللو صدقني شعرت حينها وكأنني في قلب الحدث بمسرحية ريا وسكينة ..لا لا تضحك رجاء.. ستفهم حين أخبرك بما جرى؛ صديقتي وهي مدرسة قديرة وحازمة كانت ترى الأمور بمنظورها التربوي الصحيح بما معناه لا يصح إلا الصحيح، كانت حازمة وأرادت حسم الأمر حين شاهدت الخوف في عيني ابنتي وترددها في التحرك بعيداً عن هذا المكان فما كان منها إلا أن بادرتها بصوت جاد:

_(مابك؟مم تخافين هيا لنغادر هو حر إن أراد أن يسرق إلا أنني لم أر بحياتي أمّا لا تردع عن السرقة بل حتى بناتها كن يسرقن معها).

وهنا كانت الطامة الكبرى ما أن خطونا خطوتين حتى استلمت إحدى المرأتين ابنتي من شعرها الطويل وانهالت عليها بالصفعا، أنا ذهلت تماماً وأحسست بالشلل تقريباً لم أستوعب الأمر لثواني فما كان من صديقتي وهي ضخمة الجثة إلا وأن سحبت ابنتي من تلك المرأة فكان جزاؤها أن انهالت الصفعات عليها من المرأة وبناتها ورمين بها أرضاً بالقرب من عربة الدرة المغلية وجرة الغاز بوسط السوق، أخذت أصرخ بشكل هستيري بالرجال الموجودين بأن ينقذوها كنت خائفة جداً، وابنتي ملتصقة بي وهي ترتجف والغريب أن الباعة الرجال

كانت ترتفع أصواتهم بخوف وهم يرددون اسم عائلة تلك النسوة التي ظهر أنها عائلة من المهربين المسيطرين على هذا السوق بأسلحتهم وهراواتهم وهم أصحاب أتاوة دائمة يفرضونها على الجميع، لم يقترب أحد ليساعد تلك السيدة التي أرادت حقاً فأصبحت تحت أقدام ثلة من النسوة السارقات ومن العتاة المهربين. إذ سرعان ما دخل اثنان منهما ووقفا بعيداً يتأملان بوقاحة نظرات الخوف على وجوه الباعة، وكأن الخوف عدوى جماعية سرعان ما انتقلت إلى باقي الناس في السوق حين وجدوا الصمت مع بعض التمتمات التي كانت تحذر من الشبيحة المهربين... هو الخوف يا ساندريللو ..نعم الخوف.كانت هراوات أولئك العتاة تعلو على أي صوت لاعتراض... ما نقلته لك من صورة حقيقية كانت حقيقة وواقعاً وفساداً أمنياً وشعبياً. حين ذكرت لك تداعي الأفكار هذا كان بسبب ذكري لكوز الذرة. في التطور الطبيعي للمخلوق الذي يسمى إنسان... بعض النظريات ذكرت أن أصل الإنسان قرد بحسب نظرية داروين يعود إلى قرد العصر الميوسيني في نظرية التطور في أصل الأنواع، وحتى في البحوث العلمية المتعلقة بالسجل الأحفوري نرى أن جسد الإنسان يتطور لتستقيم قامته واعوجاج وانحناء جسده ليصبح جسداً متكاملاً، وأذكر هذه النظرية تدليلاً على ما أريد الوصول إليه كفكرة كمجرد مثال فقط بعيداً عن صحتها وبعيداً عن التأويلات الدينية والقناعات في أصل الخلق، فلا أقصد بها إلا أن الإنسان كحالة مادية خلق وارتقى بجسده ليصبح بصورة أقرب للكمال بتركيبته الجينية والظاهرية، تقول النظريات إنه تطور ليصبح بهذا الشكل من الاستقامة بجذعه وقوامه، ولم يذكر أنه في مراحل تطوره مر بدور الخرفان أو الهررة.. فلم هذه المأمأة وهذا الانكسار والخوف؟ لم لم أجد صورة إنسانية حقيقية لما جرى في سوق شعبي كان رجاله أقرب ما يكونوا إلى الخراف بعيداً عن الرجولة المفترضة التي كانت تستدعي منهم التدخل لحماية سيدة ينهال عليها الغوغاء بالضرب والصفع حتى طارت نظارتها من وجهها، وسقطت تحت الموقد المشتعل الذي كان

جسدها ملقى بقربه وعلى وشك أن يقلب عليها؟ لم كنت أنا الوحيدة التي استطعت شدها بعيداً بكل خوفي وذعري؟ رجال لم يستطيعوا حماية امرأة وطفلة، كيف لصمتهم أن يحمي حقوقهم؟

ساندريللو صدقني يختلط بداخلي إحساسي بالخذلان والغثيان مع الألم... هل كانت هي السكينة يا ساندريللو؟ هل الصمت فعلاً سكينة؟ لا يا ساندريللو مطلقاً.. هو فقط الهدوء الذي يسبق العاصفة. لاشيء يعد بالسكينة... عازف المزمار يمضي بهم إلى ما بعد الهاوية. ثمة ما يحرك أو ما سيحرك الأمور... فعازف المزمار يمضي بهم إلى ما بعد الهاوية... نسير مغمضين.. والهاوية هناك حيث الغرق. ساندريللو علي الذهاب لأشتري عبوة لماء الشرب فمياه الصنبور غير مستساغة للشرب كما ماؤنا العذب في بلادنا.. تأخر الوقت ذاهبة الآن لشراء الماء وكعك السميت. سلام يا صديقي... أعدك بالكتابة قريباً

الرسالة الخامسة والثلاثون ((35))

عزيزي ساندريللو...

أسعدتني جداً بأخبارك... أخيراً حر طليق أنت. أسعدني لقاؤك بأهلك وبصديقك عامر، كنت دائم القلق بشأنه إلا أن ما صدمني حقيقة هو ما أسره إليك بخصوص ذاك الصديق الذي كان من أقرب المقربين منكم؛ كيف تأكدتم من كونه مخبراً؟ بحقيقة الأمر لم يعد هذا بزمن المستحيلات فالآن كل شيء بات ممكناً.. المستغرب فقط هو أن نستغرب... تباع أوطان فما بالك بأشخاص؟ أخبرتني بأن المكتبة التي كنت ترتادها قد أغلقت وتحولت لمحل بيع أحذية.. هذا أيضاً من الأمور التي لم تعد مستغربة... نحن بزمن بات فيه الناس يسرعون لشراء أحذية أكثر من قبل، حيث الاعتماد على وسائل النقل صعب جداً أغلب الأوقات تشل حركة المرور بغياب المازوت والبنزين؛ وبسبب الفيول المغشوش... ساندريللو أرجوك ابتعد عن شعورك بالإحباط هي مجرد فترة فقط وستمر.. أنت تعلم طبيعة الناس أعلم معاناتك الحالية بما يخص تجنب الناس لك... هو الخوف يا صديقي. الخوف من سياط الرقابة. أنت تلتف حولهم لتحميهم فيحاولون التملص من احتضانك لهمومهم ومآسيهم... الشعب غالباً مايكون المتمرد الأول على ثواره بل وحتى يتجنبهم بسبب الخوف والقلق وأحياناً الجهل انظر إلى غيفارا يا صديقي ألم يقتله جهل واحد من أفراد شعبه، كان غيفارا يستميت من أجل شعبه فقتل بسبب جهل أحد أفراده.. الخوف الجهل، والمصالح، هكذا هي الحياة... أمر غريب فعلاً كما تقول لكن هي الحياة يا صديقي... ستشعر بالغبن نعم أفهم هذا شأنك شأن كل

من سبقوك، لن تكون صاحب قضية إن كنت تفكر باليوم؛ فكل قضية في بلادنا هي مشاريع مؤجلة التحقيق، ربما ينصفك التاريخ مع الزمن الزمن ثرثار يا صديقي يحب نقل الأحداث ستقول لن يذكرك أحد قد لا تذكر بالاسم لكن يكفي أن يذكر ما ستكون عليه الأحوال فيما بعد أووف أعلم أنني أثرثر كثيراً لأخفف عنك ولكن هل لنا سوى هذا التروي الآن؟ تسألني أين أنا؟ نعم أنا مازلت في تركيا أحاول التعايش مع الأنا الجديدة التي أروض نفسي عليها أهو الانعتاق من الذات؟ ربما كنت على وشك أن أردف بكلمة السابقة على كلمة الذات، إلا أنني سخرت من نفسي على هذا الوصف فكيف لكل قائم بذاته كوحدة متكاملة أن تكون مدرجة ضمن صفات التغييرات؟ مهما يتغير الإنسان فينا إلا أن ثمة ما هي النواة الكامنة فيه ألا وهي الذات الحقيقية لا يمكن أن تتغير، شيء له صفة الجين المحدد غير قابل على التغيير، شيء له بنية الأساس لا يخضع للتدرجات، صادق هو كالفطرة الأولى ربما

ساندريللو...

الذات هي النفس على ماهي مفطورة عليه، محددة تماماً، شيء رغم كل التغييرات الحياتية إلا أن لها أسها الأولي؛ هي كما الخير أو الشر كما الأسود أو الأبيض. لا لا مطلقاً لست متعنتة بهذا... لا أراها كما الرماديات فالذات قرار في لحظة ما تكون هي القرار، والقرار فقط مابين اثنين: الصح والخطأ. هي الثنائيات يا ساندريللو ثنائيات التناقض أو التكامل الأبدية... وهذا ليس بغريب إذ كنا نبحث عن التكامل لن نجده إلا ضمن التناقض... في الجمع بين النقيضين تكاملهما.

ساندريللو

البيت الذي أعيش فيه حالياً هو في مجمع قريب قريب جداً من البحر أنزل يوميا لاحتساء قهوتي في مقهى بالمبنى المجاور أستمتع بالهدوء أحاول أن أسترد بعضاً من سكينتي وسلامي، وكأنني أعوض افتقادي

لهما إبان معيشتي في بلدي حيث الحرب الطاحنة التي استنزفت أعصابي تماماً. الأمور هنا رائعة تماماً لكنني أشعر بتأنيب ضمير وكأنه لا يحق لي الشعور بهذا الاطمئنان.. هي الغصة يا ساندريللو.. مع كل جرعة ماء أفكر بعطش مدينتي وأتذكر كيف كنا نستميت في تقنين الماء الذي بالكاد نستطيع الحصول عليه من السوتيرات بعد أخذ مواعيد من أصحابها، ولم تكن هذه المياه صالحة للشرب معظم الأحيان كنا نضطر لغليها وتبريدها قبل شربها، لكن كثيراً ما كان العجز عن توفير الغاز يضطرنا لشراء عبوات مياه صحية على ما أذكر كانت مياه بقين. الغريب في الأمر يا ساندريللو هو وصول هذه العبوات إلى المدينة.! تجار الحرب ومسؤولو البلاد إن أرادوا يصبح الطريق سالكاً... وإن لم يشاؤوا يختفي الطحين والحليب والأرز والمواد الأساسية. كثيراً ما كان يصاب الناس بالتسمم ولم تكن المشافي قادرة على استيعاب هذه الحالات.. آه يا ساندريللو... حلب عانت الكثير لهذا اعتبرت أكثر مدينة منكوبة في العالم، نعم لا تستغرب... حين يضطر الناس لدفن موتاهم بالحفر تحت الأرصفة لعدم تمكنهم من العبور إلى حي آخر لك أن تعلم حجم الرعب والعناء الذي كنا نعيش به. تباً يا ساندريللو جعلني حديثي هذا أفكر بما تركته خلفي... صعب جداً هذا الانفصال عما تركناه ولا يتركنا. ساندريللو أمسك الآن بيدي حفنة من الرمال... لطالما كنت أتمنى لو كنت أعيش في مدينة ساحلية، للرمال سحرها الخاص أحب السير حافية عليها، أن تلسعني حرارتها وتحتسيني رطوبتها... أحب الشعور بالتوحد معها إلى درجة التماهي والغوص فيها حتى الأعمق.. أشعر كأنها رحم الطبيعة وكأنها العودة إلى ماقبل الخلق... الرمل والزمن... ذرات ولا التصاق... الرمل عنصر حر متمرد أحب جبروته في ضعف جزيئاته التي تأبى الالتحام طوعاً، سريع التزأبق والتناثر كما الهروب كما... الذكريات.. تنساب الآن حبيباته بين أصابعي، لن يبقى مع الوقت سوى ذاك الإحساس الذي سكن بلحظة ما على جدار مساماتي لتتناوب برودته مع لسعة حرقة الفقدان. مرت الآن بالقرب مني سيدتان تركيتان كانتا تلتقطان أعقاب سجائر، وأعواد

البوظة وأكياس الشيبس وترميان بها في كيس بلاستيكي حملتاه معهما.. كانتا مجرد زائرتين لهذا الشاطئ، إحداهما بلباس البحر والأخرى بلباس رياضي.. أحببت هذا التصرف المسؤول، وتذكرت شواطئنا التي كانت تترك فيها مخلفات الأطعمة وأكياس النايلون... والسؤال الذي يطرح نفسه ما السبب في الشعور بالمسؤولية عن عدمه من بلد لآخر؟ الاعتزاز بالوطن أمر رائع لكن أين الصدق بمشاعرنا تجاه ما نحبه وبالتالي عدم محافظتنا عليه؟ لنكن صادقين يا ساندريللو؛ هل هي طبيعة شعب؟ أو نوع من الكبت المتمرد على كل شيء حتى حدود الأذى؟ ما الذي يدفع شعب للاهتمام بمرافقه العامة أو الإساءة إليها؟ كثيراً ما كنت أفكر ولأقولها بكل صدق أفكر بهذا والغيرة تتملكني حين أقارن المسؤولية والالتزام والوعي بين دولة وأخرى؛ ولا أقصد هنا تركيا بالذات بل تحديداً بين أي دولة أوربية كنت قد زرتها مسبقاً. يجب أن يكون الدافع ذاتي وجمعي بالوقت ذاته كسمة حضارية والأغرب من هذا نتغنى بأننا أهل الحضارة وأول مؤسسي الحضارات. أف يا ساندريللو الوضع مزعج... أرجوك أن لا تسخر إن قلت لك رأي أن الطريق للتمدن والتطور لا يكون إلا بالخطوات الأولى للنظافة... النظافة بكل شيء، المدن، القرى، الناس... الضمير.. ساندريللو... نحن الآن في شهر رمضان وهذا صوت الأذان... علي أن أعود إلى البيت، رغماً عني غصصت بالدموع... وحيدة أنا هنا تماماً بعيداً عن أهلي وجيراني وحيي وشرفتي... أشعر برغبة كبير لأن أشم رائحة المعروك وأن أسمع أصوات جلبة جيراني في مطابخهم... لهذا الشهر طقسه الخاص هو شيء حميمي جداً بعيداً عن كونه فقط رابط روحي بين الإنسان وخالقه.. لا أجيد شرح الأمور... الموضوع ببساطة أنا مشتاقة لبلدي وحين أقول بلدي وليس وطني أشعر بتضييق الكلمة أكثر لتصبح أشد دفئاً وحميمية.. نعم مشتاقة إليك يا حلب.

ساندريللو ..أكتب إليك فيما بعد.

نهاية الجزء الأول...

الفهرس

المقدمة 5
الكاتبة في سطور 17
الإهداء 19
الرسالة الأولى ((1)) 21
الرسالة الثانية ((2)) 23
الرسالة الثالثة ((3)) 26
الرسالة الرابعة ((4)) 29
(الرسالة الخامسة) ((5)) 32
الرسالة السادسة ((6)) 35
الرسالة السابعة ((7)) 38
الرسالة الثامنة ((8)) 42
الرسالة التاسعة ((9)) 46
الرسالة العاشرة ((10)) 51
الرسالة الحادية عشر ((11)) 55
الرسالة الثانية عشر ((12)) 61
الرسالة الثالثة عشر ((13)) 64
الرسالة الرابعة عشر ((14)) 71

الرسالة الخامسة عشر ((15)) 76
الرسـالة السادسة عشر ((16)) 80
الرسـالة السابعة عشر ((17)) 84
الرسالة الثامنة عشـر ((18)) 89
الرسـالة التاسعة عشر ((19)) 94
الرسـالة العشرون ((20)) 100
الرسـالة الواحدة والعشرون ((21)) 104
الرسالة الثانية والعشرون ((22)) 108
الرسـالة الثالثة والعشرون ((23)) 112
الرسـالة الرابعة والعشرون ((24)) 117
الرسـالة الخامسة والعشرون ((25)) 124
الرسالة السادسة والعشـرون ((26)) 129
الرسالة السابعة والعشـرون ((27)) 138
الرسـالة الثامنة والعشرون ((28)) 146
الرسالة التاسـعة والعشرون ((29)) 150
الرسالة الثلاثون ((30)) 155
الرسـالة الواحدة والثلاثون ((31)) 161
الرسالة الثانية والثلاثون ((32)) 165
الرسـالة الثالثة والثلاثون ((33)) 169
الرسـالة الرابعة والثلاثون ((34)) 174
الرسالة الخامسة والثلاثون ((35)) 178